تريستيتيا

رواية

اسم الكتاب: تريستيتيا
اسم المؤلف: مؤمن مصطفى السبيعي
التصنيف: رواية
الحجم: 14 - 20
عدد الصفحات:
سنة الإصدار: 2024
رقم الإيداع: 22691 / 2024
الترقيم الدولي: 978 - 977 – 971 – 100 – 3
تدقيق لغوي: د. هبة ماردين
تصميم غلاف:
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

تريستيتيا

رواية

مؤمن مصطفى السبيعي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

إهداء

إلى كل فتاة كُسِرَتْ روحُها وعانت تحت وطأة نرجسية الآخرين وطغيانهم. مقيدة بقيود العادات والتقاليد التي سلبت من معناها الإنساني.

إلى كل من خرج من ظلمات السجون بسلاسل الجسد إلى سلاسل الروح في المصحات النفسية.

إلى المتشردين واللقطاء الذين تذوقوا قسوة الحياة في أسوأ صورها، وعاشوا على هامشها بلا رحمة.

إلى العقلاء الذين سجنوا داخل أسوار المصحات النفسية، بينما المجانين الحقيقيون يسرحون في الخارج، يفسدون الأرض بلا نزاع.

إلى أولئك الذين تجرعوا الألم كأسًا بعد كأس، وعاشوا ما لا ينبغي لإنسان أن يعيشه خلف جدران الصمت والنسيان.

إلى الذين كانوا بخير لولا ظلم الآخرين.

مؤمن مصطفى السبيعي

****

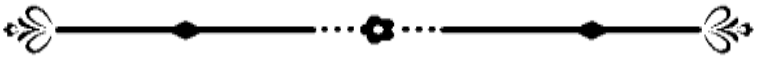

(تنويه)

هذه الرواية من وحي خيال الكاتب ولا تمت أي قصة من ضمن هذه القصص للواقع بصلة...

ولا تخص أي دولة أو منطقة معينة، بل تشمل مجتمعنا هذا بأكمله.

فهي مجرد إيصال رسائل لأمور يتغاضاها مجتمعنا وينشغل عنها في أمور حياته اليومية الطبيعية.

بعيد كليًا كل البعد عن هذه الأمور التي هي بحد ذاتها إجرام.

مؤمن مصطفى السبيعي

"لعلنا جميعًا الآن نعلم علم اليقين بأننا نعيش عصر العولمة... وإمكانية وصول كلمة من اليابان موجهة إليك في بلدك أينما كنت خلال ثوانٍ معدودة.. أصبح شيئًا يقينيًا وغير مستغرب... دعني الآن أعطيك دليلًا أكبر وأعمق... أنت الآن جالس في غرفتك أو في المقهى أو في أي مكان آخر... تمسك بيدك كتابًا يحكي قصتي... كتبتها بخط يدي وأنا محبوس بين جدران الغرفة رقم 22 في مصحة نفسية.. تحوي عددًا من المرضى العقليين أو بالأحرى "المجانين"... أرأيت؟ هذه هي العولمة عزيزي! ألا وهي قدرة تواصل العالم مع بعضه بشكل أسهل من ذي قبل... دعنا من كل هذا.

لعلك الآن تتساءل كيف لشخص يستطيع التحدث بهذه الكلمات ويعرف عن العولمة ويناقشنا... وهو محتجز في مشفى أو مصحة للأمراض العقلية؟!

لا بد أنّ هناك خطأ ما!

نعم يا عزيزي أنت محق... هناك خطأ ما... لكنّه كان خطًا متعمدًا منذ البداية... فأنا لم أدخل إلى هذا المكان قسرًا وبالقوة، بل دخلته بإرادتي وبكامل قواي العقلية... قررت أن أتظاهر بأني بلا قوى عقلية...

إليك قصتي.

أنا مؤمن، كاتب هذه الرواية التي تقرؤني من خلالها. ربما أدركت الآن أنني بطل هذه الحكاية، وأني أكتب لك من داخل هذه المصحة، وتحديدًا من غرفتي الكئيبة. أعرف أنك حين قرأت تعريفي، ربما تمتمت في سرك، "سيشرع في عرض بطولاته". لكن، أطمئنك... رجل مثلي، مقيدٌ داخل جدران مصحة، لا وقت له للبطولات.

لن أتكلم عن نفسي هنا. جئت لأقص لك حكايات من مرّوا معي، أرواح اجتمعنا في هذا المكان، ثم تفرقنا، كلٌ يحمل قصةً خاصةً أتت به الحياة وأعادته النهاية. دعني أولًا أرحب بك رغمًا عنك، وأعرّفك بنفسي وإن لم ترغب، ثمّ نغوص سويًا إلى تلك الأسماء المنقوشة على الجدران، ليتكلم كل واحد منهم بنفسه، ويحكي حكايته التي خلفها أثرٌ لن يُمحى.

مرحبًا بك في غرفتي الكئيبة؛ حيث كل زاوية تختبئ فيها ظلال الماضي، وحيث الأسماء على الجدران تُخبر عن ذكريات دفينة، حيث الظلام هو سيد المشهد، يقبع في الأركان، يتسرب من فوق الوسادة وتحتها. هنا، في هذا العالم المعزول عن كل ما تحبه، ستجدني، ولم أعد أهوى الخروج ولا شغوفًا بصخب الحياة في الخارج، بل بتُّ أكره حتى أصوات المجانين من حولي، أو أولئك المتظاهرين بالجنون، مثلي تمامًا.

مرحبًا بك في عالم الجنون؛ من داخل هذه المصحة النفسية، وتحديدًا من داخل هذه الغرفة... أعتقد أنني أطلت الترحيب.

بصراحة يا عزيزي، أو صديقي، أو أيًا كنت... أنا هنا، محتجز في هذه المصحة منذ أيام، وربما أكثر أو أقل. كل ما أعلمه أنني جئت بعد عناء طويل ورجاء كثير كي يُسمح لي بالبقاء هنا لفترة، كي أكتب رواية جديدة، مختلفة كليًا عن هذه التي تقرؤها الآن. كنت أظن أنني سأكتب عن حياة المرضى النفسيين بواقعية أكثر، بعيون كاتب يراقب عن بُعد، لكن شاء القدر أن أبقى هنا، لا كمؤلف، بل كمريض.

غرفتي؟ تقبع في الطابق الأول، عندما تسير في الممرات، ستلمح الأرقام التي تتراصف على الأبواب حتى تصل إلى الرقم اثنين وعشرين. ستضع يدك على مقبض الباب محاولًا فتحه، لكن عبثًا، فقد أقفلته من الداخل بالمفتاح. اطرق الباب عدة مرات، وسأفتح لك من الداخل.

عند دخولك، سترى أمامك نافذة مغلقة، ستائرها تحجب كل ضوء. ستبدو لك كما لو أنّها لم تُفتح منذ زمنٍ طويلٍ، كأنني أرفض دخول أي هواء قادم من الخارج الملوث بالبشر. تجاهل ملاحظتي هذه. على يمينك سرير، وفوقه جدار حُفر عليه أسماء متناثرة بشكل عشوائي... أسماء أصدقائي، وأفراد عائلتي، وجيراني، وأسماء الفتيات اللواتي عبرن حياتي، واللواتي لم أقابلهن أبدًا، لكنّها أسماء منقوشة هنا، كشواهد على وجودهم الغائب.

على الجانب المقابل للسرير منضدة صغيرة يوضع عليها أوراق مبعثرة وصورة لفتاة حسناء، هذه الفتاة تدعى خولة، بالحقيقة خولة لم تكن من ضمن هؤلاء الأشخاص على الرغم من اسمها الذي نقش عدة مرات وعلى كل جدار.

بل إنها حبيبتي، أقصد كانت حبيبتي أو ما زالت حبيبتي، وغزة سترافق قلبي مدى الحياة.

كانت خولة تلك الفراشة الجميلة. هي أشبه بوردة نرجس بنفسجية، كانت تنهيدة الوصول ولحن الأغاني المفضلة، ابتسامات الأطفال، اقتباسًا خالدًا من كتاب نادر، كانت هي من يعلم عبادة الجمال بجمالها، وكانت هي من أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية لكلّ فتى، خولة تظهر على حين غفلة في ربيع حياته، تدخل المحب لجنة الحب بطهرها وحلاوتها، واليوم وقد مرت الأعوام المظلمة طامسةً بأقدامها رسوم تلك الأيام، لم يبقَ لي من خولة سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي، مثيرةً تنهدات الأسى في أعماق صدري، مستقرة دموع اليأس والأسف من أجفاني... وخولة... خولة الجميلة رحلت تاركة خلفها بقايا فتى مهشمة تذيبها مرارة الأيام وقسوة الحاضر وحرقة الماضي.

****

جوليا... أول وجه صادفته عيناي خلف جدران هذه المصحة، وأول اسم نقشته يدي على جدار غرفتي. كانت جوليا فتاة في مقتبل العمر، لم يتجاوز

عمرها الواحد والعشرين ربيعًا. ملامحها بسيطة، بريق عينيها الأزرق يروي حكاية شغف ضائع، وابتسامتها تحمل ثقلًا يفوق سنها بكثير.

رأيتها للمرة الأولى وهي جالسة على مقعد خشبي تحت ظل شجرة كبيرة في حديقة المصحة، المقعد الذي بات لاحقًا ملاذي الخاص بعد رحيلها. لم تكن جوليا ترفع عينيها عن الأرض، وكأنها تبحث عن شيء دفنته هناك أو تهرب من عالم فوقها لا يرحم. كانت تتمتم بكلمات لا يسمعها أحد سواها، وكأنها تعقد صلحًا مع أشباح ماضيها أو تخوض حوارًا مع فراغ يملأ حياتها.

في تلك الأيام الأولى لي بالمصحة، كنت أبحث عن شخص يفتتح حكايتي، عن وجه يحمل ثقلًا دراميًا يروي ما لا تستطيع الكلمات قوله. ووجدت جوليا، غارقة في عالمها الخاص، تتحدث إلى الأرض وكأنها تسرد لها أسرارًا دفينة. اقتربت منها بحذر، لستُ قريبًا بما يكفي لإزعاجها ولا بعيدًا إلى درجة تجعلها تشعر بالوحدة التي كانت غارقة فيها.

نظرتُ إليها وهي تمضي في طقوسها الغريبة: ابتسامة تملأ وجهها الصغير للحظة، يعقبها ظلال من الحزن، ثمّ شرارة غضب عابر، قبل أن تنساب دموع خفيفة على وجنتيها، وكأنها تمثل مشهدًا مكتملًا من حياة لا أستطيع فهمها. كل تلك المشاعر في لحظات معدودة، مختبئة وراء هدوء المكان وأسراره.

لم تكن جوليا مجرد فتاة غريبة في هذا العالم المكسور، بل كانت مرآة تعكس جنون الحياة وقسوتها، صورة ملونة للروح التي تتمسك بآخر خيط للأمل رغم الانكسار.

نظرت يمينًا إلى وردة بيضاء يحضنها الندى تفتحت حديثًا مع إشراقة الصباح.

اقتربت منها محاولًا قطفها دون أن يراني عمي السيد الرجل العجوز الذي يدير شؤون الحديقة ويعتني بها داخل الحديقة، ما أفعله أنا كان وكأنني أرتكب جريمة بقتل أحد أطفاله وسلبه منه...

دنوت منها صامتًا، فلم تتحرك ولم تتكلم، كأنها علمت بقدومي قبل قدومي، جلست بجانبها حدقت إلى عينيّ، من ثمّ تنهدت تنهيدة طويلة عميقة، من بعدها أعادت نظرها إلى الأرض سارحة بمخيلتها إلى ذلك الشغف البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار.

في اللحظة ذاتها التي نظرت إليّ بها نظرتُ إلى وجهها، وكأنني نظرت إليها لأعوام، فرأيت تلك الأجفان غائرة متجمدة مكتحلة بخيالات التوجع والألم ورأيت تلك البشرة التي يجب أن تكون على طبيعتها، كثنايا الزنبق البيضاء الفرحة بقبلات الشمس.. مصفرة وذابلة متبرقعة بنقاب القنوط، رأيت الشفتين اللتين تخيلتهما كزهرة الكاميليا تسيل عليهما الحلاوة، قد ذبلتا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الطريق، رأيت

العنق المحني إلى الأمام كأنه لم يعد قادرًا على حمل ما يجول في تلافيف الرأس.

رأيت هذه الانقلابات في ملامح جوليا لفترة لا تتعدى العشرين ثانية... رأيتها جميعها ولكنّها لم تكن بنظري إلا كسحابة توشح القمر فتزيد منظره حسنًا وهيبة.

مددتُ يدي نحوها جوليا.. جوليا التي عرفت اسمها سابقًا، مقدمًا الوردة بصوت هامس متردد: تفضلي يا سيدة، ثوانٍ معدودة حل الصمت على أرجاء المكان والخواطر تحدثني عن أمور ستحدث، أتوقعها ولا أتوقعها. حتى حولت جوليا وجهها نحوي بملامح تبعث نشوة التعذب لناظرها.

سألتني عن سبب تقديمي لها تلك الوردة وما هو المقابل منها... أجبتها أنها أعجبتني ورأيت أنّ هناك تشابهًا بينهما وهذا ما دفعني لذلك.

حدقت بعينيها أكثر مما شكل على وجهها الغضب قائلة:

_ بمجرد رأيت تشابهاً بينها وبيني قطعتها عن الحياة وحرمتها ما تتمناه حتى العيش بسلام وانتظار مستقبل أفضل، حتى بهذا يوجد تشابه بيننا أيضًا، جميعكم هكذا يا معشر الذكور ما إن رأيتم كائناً ضعيفاً حتى انقضَضْتم عليه بأنيابكم وأظافركم وشوهتم حاضره وماضيه ومستقبله، منذ الأزل ونحن بالنسبة لكم مجرد خادمات بالمنزل ومطيعات بالأوامر وسبايا على الفراش نتلقى جميع أنواع السوداوية والهمجية.

حاولت السيطرة على الأمر والتفكير لمدة ثوانٍ بما أقول وما لا أقول، ثم قلت بنبرة مطمئنة:

_ إنني فعلًا هذا ما رأيته وإنني تعاملت مع ذلك على ذلك، أكملت وأنا ما زلت أمد يدي نحوها: إن كان ذلك سيغضبك أكثر يمكنك رفضها لكن دعيني أقول إنّ ليس جميع الرجال أو الذكور على قولك ولدت بالعقول نفسها، كما أنّ النساء كذلك والكائنات لكل فرد حياته الخاصة وعقليته التي تبرمج عليها ورآها من المجتمع الذي يحتاط حوله، فالماء المجمد لا يمكننا أن نقول إنّه سيحرقنا لأنّنا احترقنا ذات يومٍ من ماءٍ مغليّ، كما أنّنا لا يمكننا أن نقول لجميع الحيوانات الأليفة أنّها متوحشة لأننا تلقينا خدشًا من أظفر قطة صغيرة، كما أنّ جميع الحشرات لا تلسع مجرد لمسها، هكذا نحن معشر الإنس ليس جميعنا لطفاء، كما أننا لسنا جميعًا طغاة حتى من هم خلف قضبان السجون ليس جميعهم مجرمين ولصوص، ثلثهم أبرياء وضعوا بسبب أحدهم، لا أعلم تلك الظروف التي مررت بها أو حلت عليكِ ودفعتك لقول ذلك الكلام دون أن تمرريه على مسمعك، إنّ ما عشته طوال حياتك من ظلم أحد الذكور سواء كان زوجك أو والدك أو شقيقك أو حتى مديرك بالعمل أو صديق لك بالدراسة، هذا لا يعني أن تحكمي على جميع المجتمع بسبب فرد منه.

كانت كلماتي كافية لدس الطمأنينة على مسمع جوليا، حتى أنها مدت يدها وأخذت الوردة وشكرتني أما أنا بقيت محدقًا إلى وجه جوليا، مصغيًا لأنفاسها المتقطعة، صامتًا مفكرًا، شاعرًا متألمًا معها ولها.

لم أكن أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين إلى أعماق الماضي الأليم.

كانت تنظر جوليا للوردة بنظرة ممزوجة بين الحزن والفرح، ممزوجة بالحرمان والتمني، ثمّ سقطت دمعة من عينيها سهوًا أعادت جوليا إلى واقعها. وأوقفت الدمعة الثانية قبل أن تكشف ضعفها وقالت بعدها متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية: لأول مرة أرى الحياة في وردة. أرى السعادة والفرح. صمتت دقيقة كما تستجمع أنفاسها، ثمّ أكملت: ماذا تريد مني ومن أرسلك إليّ.. أنت طبيب أم عامل أو أيًا كنت أتيت حتى تختبرني، لا أحد يصدق أنني بكامل قواي العقلية حتى كشف الأطباء حتى اختباراتهم لا تصدقني.

لا أحد يصدق أنني لا أعاني من أي مرض جميعهم ألقوا بي إلى خلف هذه الجدران.

أجبتها بنبرة حادة:

_ لست أي أحد ممن ذكرتِ، شخص أنا كأي شخص رأته عيناك خلف هذه الجدران، ولكن أنين القلوب يُسمع في بعض الأحيان... وخوف النفس يرى أكثر من طمأنينة الجسد، إنّ ظمأ القلب يقتلك يا سيدة، لماذا لا يبقى هذا القلب حيًا لماذا لا يبقى كطائرٍ مغردٍ حتى ينتهي الربيع حتى تتساقط أوراق

الخريف وتداعبه قطرات مطر الشتاء؟ لا تخرسيه دعي حفيف أجنحته تنفض غبارًا داخلك، حتى افتحي سلاسل صناديق أسراره لا تدعي الصدى يجعل داخلك يتآكل، لقد قلت كل ذلك دون معرفتي باسمك ومعرفتك باسمي، وجدتني أجلس هنا بجانبك أحادثك دون إدراكي لذلك ولكن أخبريني بما جعل ربيع شبابك يضنيه هواء الخريف، بما أوصل حال فتاة في ريعان شبابها تجلس بمكان كهذا وهي لا تعاني من شيء.

أجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتين: إن كان عن اسمي فاسمي جوليا، أما عن ماضيّ وما سبب ما أنا عليه، إن كنت تقبلت منك هذه الوردة فهذا لا يعني أنني سأفرغ ما في قلبي لك لمجرد خمس دقائق تحادثنا بهنَّ... إنّ ما في القلب لا يقال بسهولة، وما الفائدة إنْ قيل أو لم يُقَل.

كنت محاولًا أن أدع حكمتي هي التي تتصرف وتحادث جوليا حتى أخفف من هلعها، وفي الوقت ذاته بدأ فكري يتغير، كان هناك شعور غريب يدفعني لمساعدة تلك الفتاة، بينما كان هدفي البدائي هو الجلوس والاستجواب من أجل تأليف رواية.

ثمّ أكملت إنّ حياتي مكتوبة وسوف تعاش، حتى شبابي لم يعد يهمني، وما فائدة الشباب بمجتمع كالوباء يدسّ مصل سمه بداخلنا، ماذا أخبرك هل أبدأ بحياة الفقر التي دمرتنا أم عن ظلم والدي؟ أحدثك عن نظرية المجتمع

السيكوباتي لي، لأنني مجرد أنثى أو مطلقة أو عاقر أو لأنه لا يوجد من يهمه أمري، وكيف إن كان كلّ ذلك بي!

- أجبتها: لا يمكنك أن تحرمي نفسك الحياة لا أحد يستحق كل ذلك، ما تزالين في ربيع العمر، أمامك الحياة طريق واسع مفروش بالأزهار والرياحين. سوف تخرجين إلى ساحة العالم بقلبٍ مشعلٍ، سوف تفكرين بالحرية.

حينها شعرتُ أنّ جوليا سوف تخبرني عن قصتها، قد لامست الطمأنينة قلبها وبدأت تهيئ وترتب أسرارها، قد شعرتُ بأنّ قلب جوليا سيطلق العنان.

قالت بصوت مختلف كليًا عن الصوت الذي سمعته في بداية حديثنا، قالت بصوت رقيق كنغمة شحرور يعزف على غصن شجرة في صباح ربيعي:

_ إنّ قلب المرأة يا سيدي لا يتغير بفترة صغيرة من الزمن، كما أنّه لا يعود كما كان أيضًا، ولا يتغير مع الفصول، بل ينازع طويلًا ورغم ذلك لا يموت.

المرأة إذا ما مالت قليلًا تأتيها الرياح كي تعصف بها، وها أنا اليوم ابنة الاثنين والعشرين عامًا أعيش داخل بناء شبيه بالسجن، ولماذا لا أعلم؟ كل ذلك كان سببه والدٌ ظالمٌ في بيئة تقتل المرأة وتبيدها وتعتقد بأنها عار لمجتمع بأكمله... أعلم أنك وضعتني في داخل جمجمتك ولن تخرجني منها

حتى تعلم ما سبب وجودي هنا، وأعتقد بأنّ الله أرسلك إليّ حتى أفرغ ما بثنايا قلبي من صفحات ثقيلة تحجب الأوكسجين عنه.

إنّ هذه الدقائق التي جمعتنا هي أجمل الدقائق عبر العصور، والشعاع الذي لامسَ نفسي في هذه الدقائق هو أقوى من الظلام... إنّك يا سيدي صافي القلب... الحال الذي أنت به شبيه بحالي أنا، وإنّنا لا نختلف عن بعضنا يبدو أنّ الرياح عصفت بك إلى هنا دون سبب، وأنك لا تعاني من شيء يلامس عقلك، وأنا كذلك لا يوجد شيء يلامس عقلي، كل ما أعانيه في قلبي وليس في جمجمتي، ولذلك سوف أفرغ ما في قلبي لك، لربما يكون ذلك أخف عليّ، رغم علمي أنّك لن تستطيع إفادتي بشيء، ولكن يكفي أنني أعلم أنك ستأخذ بعض الجماجم والعظام من تربة قلبي، لكن دعني أخبرك أيضًا أنّ لا شيء يتغير يبقى الربيع ربيعًا والخريف خريفًا إلى نهاية الدهور، لن أماطل أكثر سوف أروي لك قصتي منذ البداية، ولكن أتمنى أن تسمعني إلى النهاية دون أي كلمة أو سؤال.

هززت رأسي بالموافقة ونظرت لها نظرة المجاهد للشيخ، نظرة الطفل لرجل عجوز يخبره عن نصائح الحياة، ثمّ قالت:

أنا ابنة لعائلة فقيرة، عائلة أنهكها الزمان وأثقل كاهلها الفقر. نحن ثماني بنات، وأب وأم بالكاد يجدان لنا ما يُبقي أرواحنا متشبثة بالحياة. نعيش في منزلٍ صغيرٍ، بل أصغر مما يمكن أن يُسمى بيتًا، غرفتان فقط. الأولى

للجلوس، لكنّها تتحول ليلًا إلى مأوى يضم والديّ، والثانية كأنّها حكاية حزن تُعاد كلّ ليلة، تضمنا نحن الثمانية، على أرضية باردة أو أفرشة بالية.

....

منزلنا الطيني يقف وحيدًا في قرية نائية، محاطة ببساتين كأنها تشهد على فقرنا دون أن تمد يد العون. المنازل متناثرة حولنا، يفصل بينها صمت الشوارع الترابية، التي تقود إلى طريق إسفلتيّ بعيدٍ، كأنّه بوابة العالم الذي نسيناه أو ربما نسيَنا.

كلّ شيء في منزلنا يهمس بحزن. الحيطان المتهالكة، الأثاث العتيق، نظرات أمي المتعبة، وشرّ أبي الذي يفيض قلوبنا ويُعيينا. حتى الطبيعة حولنا تبدو وكأنها انعكاس لبؤسنا، تحاول أشجار الحور والسرو أن تخفي مأساتنا بظلالها، لكنّها لا تقدر أن تمحو ثقل الفقر الذي يجثم على صدورنا.
لم تكن ولادة أمي لنا، نحن البنات الثمانية، فرحة تُحتفى بها، بل كانت لعنة تطاردها وتجعل حياتها جحيمًا، لأنّها لم تنجب ذكرًا. هذا النقص، كما اعتبره أبي، صار سكينًا مسلطًا على رقابنا جميعًا، وأولهم أمي، التي كانت تتلقى من أبي الوحشية والعنف وكأنهما جزء لا يتجزأ من يومها. ننام على صراخها واستغاثتها، ونصحو على قسوة الكلمات والسياط، وكأنّ حياتنا مجرد دورة أبدية من الألم.

عند أول خيوط الفجر، يجب أن نكون مستيقظات ومستعدات للخروج إلى البستان. خمس دقائق فقط، وإلا... عقاب أبي لا يعرف الرحمة. نقضي النهار بأكمله في العمل تحت شمسٍ لا ترحم، ونعود منهكات عند المغيب لنبدأ فصلًا جديدًا من الخدمة داخل المنزل.

أما أبي... ذلك الرجل الطاغية الذي بلغ من العمر الرابعة والخمسين، فلا أملك وصفًا يناسبه سوى أنه تجسيد للقسوة. لو كنت مكاننا، عشت يومًا واحدًا كإحدى بناته، لتمنيت أن تحمل السلاح وتضع حدًا لجبروته. يملك بستانًا يكفي لسد حاجتنا وحاجة أهل القرية، ومع ذلك، لا يرى فينا سوى أدوات للعمل والطاعة، مجرد ظلال تُلقي عليها الشمس نورها دون اهتمام.

أنا، التي في منتصف الترتيب بين أخواتي، كنت الأصغر عندما بدأت أفهم معنى الظلم. بقيت أنا والأصغر مني في المنزل، بينما حمل الأكبر سنًا العبء الكامل للعمل. أما الدراسة، فلم تكن لنا حقًا، بل كانت حلمًا ممنوعًا. "ما حاجتكن للمدرسة؟" كان هذا الرد الدائم. فنحن، في نظر أبي وفي عيون المجتمع، مآلنا معروف. مصيرنا أن نكون خادمات لأزواجنا، ومطيعات بلا رأي ولا اعتراض، خادمات في البستان، خادمات للعائلة، خادمات للحياة نفسها.

تعلمنا من طفولتنا أن نقول: "نعم" و"حاضر"، وتجنبنا قول: "لا"؛ لأنّ "لا" كلمة لا مكان لها في قاموس الأنثى في قريتنا. "لا" كانت تهمة بالتمرد، وكان عقابها دائمًا أشد من احتمالنا.

كنت في التاسعة من عمري عندما بدأت رحلتي اليومية إلى البستان، رحلة لم تكن إلى مستقبل مشرق، بل إلى عالمٍ يغرس شوكه في كفيّ الصغيرتين. كنت أستيقظ قبل أن تكتمل أحلام الطفولة في رأسي، وكأنّ النوم يهرب من عينيّ خوفًا من مواجهة ذلك الصباح. بينما كان الأطفال الآخرون يحملون حقائبهم الملونة ويمشون بخفة نحو مدارسهم، كنت أحمل قلبي المثقل، وأسير إلى البستان حيث ينتظرني الإرهاق والغبار ورائحة الأرض التي لم تحمل لنا إلا الشقاء.

كان في داخلي يأس يتسع كل يوم، يكبر معي، ينهش طفولتي دون رحمة. كنت أنظر إلى المدرسة المجاورة لبيتنا وأشعر بغصة تعصر روحي. كم حلمت أن أكون واحدة من أولئك الأطفال الذين يجرون في ممراتها، يحملون الكتب ويضحكون. لكن ذلك الحلم كان أبعد من أن أصل إليه، يشبه نجمة تظهر في السماء وتختفي قبل أن تمد يدك نحوها.

في الصباح، تبدأ الطقوس المعتادة. صوت والدي وهو ينادي بأمر جاف، يليه إشعال سيجارته الأولى. كان ذلك الدخان الذي يتصاعد أمام وجهه أشبه بشبح يلتف حولنا. بصاق المخاط المتكرر على الأرض بعد كل شهيق كان يأخذه من ذلك التبغ. كنت أكره ذلك الصباح، أكره الساعة حين تقترب عقاربها من موعد العمل، أكره تلك السيجارة التي تحترق بصمت وتترك وراءها رمادًا يشبه أيامنا.

في البستان، كان والدي يجلس بعيدًا على كرسيه المتهالك، يراقبنا ونحن نعمل تحت أشعة الشمس القاسية. كوب الشاي بجانبه، والسياط في يده. ذلك السياط كان امتدادًا لسلطته علينا، ولغته الوحيدة للتعبير عن غضبه أو لإجبارنا على العمل. كنت أشعر بأنّ البستان ليس سوى سجنٍ بلا قضبان، وأنّ والدي هو السجان الذي لا يتهاون في عقابه.

ذات يوم، بينما كنت أنظف الأعشاب الجافة من الأرض، بدأت أهمس لنفسي أغنية سمعتها من أطفال المدرسة. كانت كلماتها بسيطة، لكنها كانت تفتح في داخلي نافذة صغيرة تطل على عالم آخر. لم أكن أدري أن همساتي تلك ستجلب لي سياط والدي. كان الألم لا يحتمل، لكنه لم يكن جديدًا عليّ. ما كان جديدًا هو أثر السياط الذي بقي محفورًا على ظهري، وكأنّ الألم أراد أن يترك بصمته عليّ للأبد.

عندما نعود إلى المنزل بعد الظهيرة، تكون والدتي قد أعدت لنا ما توفر من طعام. لم تكن تلك الوجبة تكفي، لكنّها كانت تضحي بحصتها لأجلنا. كنت أراقبها وهي توزع اللقيمات علينا بحب، وكأنها تطعمنا من قلبها لا من يديها. أما ملابسنا، فلم تكن ملكنا حقًا. كنا نتبادلها بيننا، أنا وأخواتي، كما نتبادل العمل والمعاناة. تلك الملابس كانت تأتي إلينا من أهالي القرية، ملابس استغنى عنها أصحابها لأنها أصبحت قديمة أو مملة. لكنها بالنسبة لنا كانت كنزًا، رغم أنها لم تسترنا بقدر ما فضحت فقرنا.

كانت حياتنا دائرة لا تنتهي من العمل والتعب والجوع. كل يوم يحمل التفاصيل نفسها، المشاهد نفسها. لكن رغم كل شيء، كنت أتمسك ببصيص من الأمل. ربما لأنني كنت أعلم أنّ الحياة لا تبقى على حالها، وأن الليل مهما طال، سيأتي الصباح. وإن لم يكن صباحي، فربما يكون صباح أخواتي أو أطفالي يومًا ما.

في الخامسة عشر من عمري، وذات ليلة وأنا متمددة على فراشي بجانب أخواتي كان عقلي يراودني بفكرة الهروب من المنزل إلى أين لم يكن يهمني يكفي أن تسنح لي الفرصة بالخروج خارج المنزل، وما بعد ذلك مجهول، لكن يبقى أرحم من العيش تحت وطأة والدي.

الهروب إلى المدى البعيد، البعيد عن تلك القرى وتلك الأشجار، وتلك الكلاب البشرية الضالة، وعن تلك المائدة التي صنعت من دم أمي وقدر أخواتي.

أحاول العبث بعقلي أطهو تلك الفكرة بتردد داخل وعاء جمجمتي، لم يكن يهمني ما يُخبأ لي بل فقط الخروج، الخروج من خلف ذلك الباب الكبير المغلق على حاضري ومستقبلي.

انتظرت حتى بدأت الشمس تبزغ من خلف التلال، كي تضيء الطريق أمامي إلى الحاضر الجديد وتكسر سمّ هواء الليل البارد.

نظرت إلى أخواتي بعين فتاة منكسرة شعرت بالعار.

العار لأنني أفكر بنفسي فقط، العار لعلمي بأنّ والدي سيفرغ غضبه بهنَّ عندما لا يجدني، العار من حالتهنّ تلك.

خرجت من الغرفة بخطوات تلامس أطراف الأرض وكأنني أسير في الهواء، متجهة لباب الخروج من المنزل، إلى عالم النور الذي خلفه، إلى أجنحة الفراشات التي تنتظرني حتى أخرج وتحملني وتطير بي إلى الأفق فوق أزهار الياسمين وأشجار الليمون.

وفعلتها لقد خرجت يا للأعجوبة! ضحكت، ضحكت بهمس حتى لا يسمعني والدي رغم أنني بقيت بالخارج.

نظرت إلى الطريق الطويـــــــل... الذي سيقودني إلى أطراف القرية، طريق ترابي ما زال ممزوجًا بماء المطر من اليوم الماضي ذلك اليوم علمت بأنّ ذلك الطريق لن يساعدني على الركض بحرية سيشل حركتي ويبطئها.

كي لا أتعثر بدأت أركض ببطءٍ وخوفٍ من التعثر، ولكن يبدو أنّ القدر محتوم وحظي المشؤوم مطبوع على قلبي لم يفارقني ولن يفارقني.

رغم كلّ ذلك الحذر من التعثر خانتني ثقتي بسبب حجر صغير قد أعمى فرح الحرية بصيرتي عنه، تعثرت به واحتضنتني الأرض، أعلم أنك ضحكت على جملتي تلك، ولكن حتى الأرض تمنعني بكل قوتها كي لا أسعد، كي أعود إليه.

اتسخت ملابسي وجرحت قدمي وجلست اتأوه وجعًا، شعور بمجاعة عميقة تملأ القلب.

نظرت إلى السماء التي بدأت تتلون بأشعة الشمس، شعرت بانقباض متلف لجهل معاني الانقباض، بكت روحي المسجونة في ظلمة تلك الحادثة، نظرت بين البساتين بعيون كئيبة، سمعت تغريدة الشحرور الموحية لجهالة حزني، رأيت الحياة أمامي كسجنٍ ضيقٍ لا يرى في زواياه غير شباك العناكب ويسمع من جوانبه سوى دبيب الحشرات وصرخات أرواح المساجين، رأيت ملائكة السماء تنظر إليّ كما أنني رأيت أبالسة الجحيم.

بعد هنيهة وأنا أجلس على قارعة الطريق ظهرت عربة تأتي من البعيد، قائدها رجل بشارب معقوف الطرفين متجهة نحوي، نظر إليّ نظرة التعجب

لجلوسي هناك بذلك الوقت، عند وصوله انحجبت بشاشة وجهه عندما رآني بذلك العمر الصغير، وبذلك الوقت.

لا أنكر مدى حجم خوفي عندما رأيته يهبط من عربته بعيون التأمل والتفكر الموجهة إليّ، أحنى رأسه وسلم منحنيًا، ثمّ قال بصوت تساوره الرقة والحلاوة يعكس صورة وجهه: من أنتِ يا حلوتي، وماذا تفعلين بهذا الوقت هنا وما هذه الحالة؟

أجبت بصوت يضارع نغمة الناي، بروح فتاة في الخامسة عشر من عمرها، ترى المستقبل قريبًا بعيدًا، بنظرات المأساة المستتبة على مسرح النفس:

_ أنا جوليا، لا، لا أفعل شيئًا كنت ذاهبة إلى، كنت ذاهبة إلى...

إلى أين تلك الجملة التي لم أستطع تكملتها؛ مما جعل ذلك الرجل العجوز ينظر بنظرة الحكمة ويسألني السؤال الذي لم أكن أريد أن أسمعه.

ابنة من أنتِ، لفظ ذلك السؤال فارتعشت يداي وربما جسدي بالكامل، وذلك كان التأكيد على أنني هاربة من المنزل، أعاد سؤاله ولكن بنبرة مختلفة عن أول مرة نبرة غضب، أجبته بنفس ذلك الخوف وتلك الرعشة، ولسوء حظي اتضح أنه صديق والدي مد يده نحوي، أمسكتها بطريقة السجين المصحوب إلى الإعدام، وبعيون الطفل الصغير للعبة ينظر لها من بعيد خلف زجاج أحد المحلات.

صعدنا عربته متجهين نحو المنزل، كنت ألفظ أنفاسي الأخيرة، لأنني كنت أعلم ما الذي سيحصل، كنت أفكر كيف سأحمي جسدي الصغير بيديّ

الصغيرتين من الركلات وضربات السياط، وكم يوم سأبقى مسجونة داخل الغرفة دون طعام.

أعلم أنك مصدومٌ مما أقوله وتظن أنني أروي لك قصة من عالم الخيال، وأنه من المستحيل أن يكون يوجد والد بتلك الوحشية، لا تتعجب والدي أكثر من ذلك.

وصلنا أمام منزلنا وهبط الرجل من عربته، طرقَ على الباب عدة طرقات، وكأنّه ضغط على قلبي، خرج والدي من خلف ذلك الباب بعيون يأخذها النوم وترنح ثقيل مرحب بالرجل، رد ذلك الرجل التحية، ثمّ أشار بيده إلى العربة نحوي قائلًا:

_ هذه ابنتك...

نظر والدي نحوي وتحولت عيناه من النعاس الماكس، إلى بركان يفور بنظرة حادة أرتني كل ما سيحصل لي، وبلحظة عادت ملامحه إلى طبيعتها وشكر الرجل لإحضاري، أخذني من الرجل وغادر بعربته نحو الأفق، نحو السماء، كأنه هبط منها بحصانه كي يعيدني، ثمّ يختفي من جديد.

سكتت جوليا دقيقة وقد أغمضت عينيها الكبيرتين، وكأنّ ذلك الماضي قد انتصب أمامها، فلم تجسر أن تحدق بي وجهًا لوجه، وكأنّها تريد أن تخترق صدري بعينيها لترى تأثير كلامها في عواطفي، وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي، لكنّني بقيت صامتًا كي لا أوقفها عن الكلام.

ثمّ أكلمت: أدخلني والدي إلى سجني الصغير ولم أذكر حينها شيئًا سوى أنني سمعت سيمفونية من أصوات شتى، أنواع الركلات، لم يسلم منها شيء بجسدي ولم أستطع أن أحمي وجهي بيديّ الصغيرتين.

وصبغ جسدي باللون المزرق ونادى أخواتي ووالدتي وأخبرهنَّ بألّا يضع أحد لي الطعام ولا الشراب وألّا أخرج من الغرفة أبدًا.

مرَّ يومان على تلك الحال، كانت أمي تقوم بتهريب بعض الطعام لي دون أن يعلم والدي بذلك، في صباح ذلك اليوم رأيت الشيطان على هيئة ملاك، يجلس أمامي مشيرًا بيده إلى صندوق خزانة الملابس قائلًا: أخرجي ذلك الحبل، نصيبك ليس ظلمة القبر، اطمعي بالنور، نهضت دون تفكير وأخرجت الحبل ومددته بحذر خوفًا من دخول أحد، لففته حول عنقي، وأغمضت عيني، وأذني، وبكيت بكاءً ظامئًا رأى الينبوع العذب بكواسر الغاب، فارتمى على الأرض مترقبًا جازعًا. هكذا ألقيت نفسي في الهواء والحبل حول عنقي.

سمعت صوت ارتطام وألم في جسدي، فتحت عينيّ، وجدتني على الأرض، الحبل انقطع مني وانسكبت على الأرض دفعة واحدة، مع دخول والدي في اللحظة ذاتها، وما إن رأى الحبل انهال عليّ بالضرب، ثمّ خرج بعدها من المنزل.

عاد والدي في المساء بشتائمه الرذيلة طالبًا من والدتي أن أرتدي أجمل ما عندي لشخص أتي لقربي.

نظرتُ إلى جوليا وكأنها قد سمعتني متفكرًا ولم ترد أن يطول الصراع بين حيرتي وظنوني.

فأسندت رأسها المتثاقل بيدها البيضاء وبصوت يحاكي نغمة الناي رقة قالت:

_ لم أكن أرد أن أخبرك أو أخبر أحدًا عن قصتي، ولكن شعرت أنني سمعت صدى أفكارك وأحلامك، وأحسست أنك شغوفٌ على المرأة المظلومة، هذا ما أراه داخل عينيك ولذلك أتيت إليّ، ولذلك أيضًا أردت أن أفتح لك صدري لترى مخبأته، وتخبر الناس إن شئت أو لم تشأ عن جوليا ومن مثل جوليا.

حلّ الليل ودخل ظل أوراق الشجرة التي أمام نافذتي على الحائط المقابل لها، مع انعكاس القمر فرسم على الحائط لوحة وقفت أمام الحائط أمرر أصابعي على تلك اللوحة، عدة طرقات على الباب، ثمّ دخلت والدتي ألبستني فستانًا قد ارتدته أختي الكبيرة عندما تقدم لها أحدهم للزواج، علمت حينها أنّ موعد الإعدام اقترب.

لا تعجب من كلامي، الإعدام ليس بحبل المشنقة فقط أو رميًا بالرصاص، هناك من يعدم بفستان زفاف وربما بخاتم، وهناك من يعدم بمجرد كلمة، علمت حينها أنّ هناك رجلًا مجهولًا بالخارج، باعني والدي له بعقد زواج قانوني.

وضعت لي والدتي القليل من مساحيق التجميل لكي تخفي بها جروح وجهي، ثمّ خرجت إلى الخارج لاستقبال مستقبلي الجديد القادم.

كنت في الخامسة عشر من عمري عندما قادني القدر إلى منزل زوجي وكان هو إذ ذاك في الخامسة والثلاثين. فكان كل من رآني يظن أنه تبناني وأنه لو تزوج بشبابه لكانت ابنته من عمري، بينما هو قد هام بي حبًا من الليلة الأولى، وجعلني زوجته وألبسني الحرير وزيّن رأسي وعنقي. جرى كل ذلك قبل أن أستيقظ من ثبات حداثتي، وقبل أن أشعر بالمجاعة الروحية التي قبضت بعد ذلك على نفسي فأوجعتها.

سرعان ما تعلمت حبه، وأخرجني إلى عالم لم أكن أراه بالخيال، فغيرت فكرتي عما رأيته في المرة الأولى بمنزل والدي عندما تقدم للزواج مني.

قد جعلني تحفة فنية في منزله وأشعرني أنني سيدة عظيمة رغم صغر سني والفارق الشاسع في أعمارنا.

ما كان عليّ سوى أن أهبه محبة قلبي لقاء كرمه، وأن أمنحه انعطاف نفسي ثمنًا لإخلاصه وصلاحه، بقيت على ذلك خمسة أشهر يحسدني بها عصافير الحقول، وورود الحدائق، ونساء القرية، حتى أتى ذلك اليوم المشؤوم.

كنا نجلس في الصباح على مائدة الفطور، كان يتأملني بنظرات المودع، نظرات دفء وسكينة، أنهى طعامه وطبع قبلة رقيقة على جبيني وغادر.

بين وداع النهار وقدوم الليل، كنت أحضر له الطعام وأمزجه بالحب والقبلات قبل قدومه من العمل، سمعت صوت طرقات على الباب لم يكن هو الطارق ميزت طرقاته، كان والدي هو من يطرق الباب، أتاني مصطحبًا شبح الموت طالبًا مني أن أرتدي ملابسي وأذهب معه، دخلنا مستشفى بجانب القرية، لم أكن أشعر بما يحدث ولماذا أتينا ولم أسأل والدي عن شيء، دخلنا أحد الغرف فوجدت زوجي على أحد الأسرة مهشّم الوجه والجسد.

حدّق إليّ بعينين جامدتين غارقتين في ظلمة النزاع، ولمس يدي، فرأيت وجهه مبرقعًا بنقاب الموت، حاول الكلام فلم يستطع لأنّ الموت كان قد تشرب صوته، ثمّ نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتاه، وتراخت يداه من يدي مثلما تتراخى طيات الثوب المبتل، وأسلم الروح.

مات زوجي بحادث سير وعانقت الأبدية روحه واسترجع التراب جسده، أما أنا فكنت ضائعة بين أحلامي وهواجسي، تنتابني الأيام والليالي، جربت أن أنسى حاضري، فلم يُجدِ كل ذلك نفعًا، بل كنت كمن يحاول إخماد النار بالزيت، لأنني لم أكن أرى من مواكب الأيام سوى أشباحها السوداء.

لقبت بالقرية بالمشؤومة حتى والدي كان أول من يقول تلك الكلمة، كانوا يشعرونني بأنني أنا قاتلة زوجي، ولأنني بقيت خمسة أشهر متزوجة ولم أحمل من ذلك الرجل رغم أنه هو لم يرد ذلك أصبحت بنظرهم عاقرًا، والمراءة العاقر مكروهة في كل مكان، خصوصًا في مجتمعنا، أصبح الناس

ينظرون لي بمقت وكأنني عدو غدار يريد الفتك بهم، مما يشعرونني بنوع من الانتحار البطيء.

مضى على ذلك خمس سنوات قبل أيام ليست بكثيرة على نفس ذلك العذاب، من والدي الذي كثر، بسبب عدم قدوم أحد آخر لطلبي للزواج، لشؤمي وهذا ما كان يغضب والدي أكثر.

جلست في زاوية الغرفة وصليت، صليت متوجعة حتى ملأت الفضاء صلاةً وابتهالًا وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخي الغيوم، وطلبت من الله أن يسامحني، ووقفت مرة أخرى بين يديّ حبل ملفوف حول عنقي، بجسد مطروح تحت أقدام الموت والحياة، ولكن أيضًا لم ألحق، دخل عليّ والدي قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة، لحق بي لم يكن يريد أن يمنحني الحياة ولم يرد أن أمنح نفسي الموت... فك ذلك الحبل من حول عنقي، ثمّ انهال عليّ بالركلات حتى أغمي عليّ واستيقظت وجدتني هنا.

أخبروني أنّ والدي هو من أحضرني إلى هنا، لماذا ومتى أخرج وأين هو؟ لا أعلم شيئًا.... منذ قدومي إلى هنا حاولت أن أقنعهم أنني بخير، لكن دونما جدوى، حتى أنهم يحاولون الوصول إلى والدي لكن دون جدوى أيضًا.

كانت ألفاظ جوليا تتصاعد مسرعة من أعماق نفسها، كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير، ثمّ تتبدّد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة، كانت دموع جوليا تنهمر من عينيها، محاولة أن تخفيها، ثمّ تنهدت وقالت: لا أعلم ماذا

أقول لك، لكن لحسن الحظ أنّك موجود، قد خففت عني ثقلًا سيساعدني، ثمّ رفعت يديها، وقالت:

_ ربي خفف عنه حمل ثقلي، قد تعبت من الحياة وآلامها.

ونهضت ذاهبة نحو غرفتها بخطوات رجل عجوز لا تقوى قدماه على السير، تنظر إلى كل من حولها، مبتسمة ابتسامة فرح ومسرة.

.....

في صباح اليوم الثاني دخلت أشعة الشمس من بين ستائر نافذة، على جثة معلقة بالهواء ترفعها أجنحة الموت.

في صباح اليوم الثاني كفنت جوليا بثوب فرحها الأبيض ووضعت بتابوت خشبيّ.

حملوها ومشوا بها من أمامي إلى خارج المصحة، مشوا بها ببطء متلف، ومشى خلفها المشيعون أما أنا، لم أستطع أن أصحبهم، ولم أستطع أن أذرف دمعة واحدة.

بقيت جامدًا منتصبًا كالصنم، قابضًا على قلبي بيدي، تحوم في عقلي جملتها الأخيرة.

(ربي خفف عني حمل ثقلي)

لقد خفّ ثقل جوليا على ذلك الحبل واستطاعت أن تحلق هذه المرة إلى السماء، كما يحلق عشرات الفتيات كجوليا كل يوم.

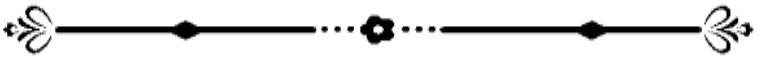

حصلت على الراحة بعد معاناة كانت تصارعها كل يوم، استطاعت التغلب على ظلم الوالد والزوج والمجتمع الذكوري السيكوباتي المتوحش.

استطاعت أن تحقق الانتصار وتفك قيد الاستعباد والتشدد اللذين فُرِضا على عنقها، وتلف بدلًا عن ذلك حبلًا طالبة للحرية.

غادرت عن السقماء الضعفاء الذين لا يستقوون إلا على الضعيف، كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج في النهار كي لا تدوسها أقدام العابرين.

رحلت جوليا كما يرحل الكثير مثل جوليا دون أن يشعر بها أو بهم أحد، مجرد ذباب كان يستحق الموت ومات.

فليمت كل ذكر نرجسي متعبد وتحيا جوليا ومن مثل جوليا.

ليطلق العنان لفك القيد عن الإناث وتحريرهنَّ من الذكور، أو ليعدم الذكور....

.....

كنت أجلس بمقعد جوليا المعتاد أتأمل المارة، ناظرًا إلى عالم الفراغ، كانت الأفكار تتزاحم على فكرتي ولا تدع خولة تغيب عن ناظري كلما فكرت بشيء جديد، وأفكر من أجل الرواية التي أنا هنا من أجلها أيضًا، أتتني خواطر تبعث نشوة محزنة في نفسي تأخذني إلى أيامي السابقة، بثوانيها مع خولة.

سمعت وطء أقدام قريبة مني، نظرت وإذ برجل يمشي بخطوات متثاقلة، وبرعشة تأتيه على سائر جسده كل عدة ثوانٍ، جلس على المقعد المقابل لي مباشرةً، ينظر إلى الأعلى كأنه ينقل النجوم بعينيه، ثمّ يربك ترتيبها ويعيده من جديد.

أخرج صورة من جيب الجاكيت الذي يرتديه وراح يتأملها بصمت وكأنّه سافر عبر الزمن، ما كان موجودًا على ذلك المقعد جسده فقط، أما هو كان في تاريخ تلك الصورة قبل ماضٍ من الزمن، بقي على تلك الحال ما يقارب الساعة وبضع دقائق، ومثل عادتي التي أنا نفسي أكرهها وضعت كامل تركيزي عليه.

راح ينظر للناس، لم تكن الحديقة ممتلئة، بضع أشخاص يجلسون بمناطق متفرقة من الحديقة، هناك من يحادث نفسه، وهناك من يتأمل المارة، وهناك من يتراقص دون موسيقا، وشاب يغمز بعينيه لسيدة عجوز بينما هي تنظر له بنظرات عاطفية، ثمّ عاد لينظر إلى الصورة من جديد، بالرعشة نفسها التي تجعل جسده بالكامل ينتفض، عدة دقائق ثمّ نهض وسار من

أمامي عدة خطوات، تعثر ووقع على الأرض وقعت من يده الصورة، حاولنا مساعدته، وأجلسناه على المقعد الذي أجلس عليه، ثمّ التقطت الصورة من الأرض وأعطيتها له، شكرني على ذلك مادًا يده نحوي ليصافحني، جلسنا لساعة كصديقين يعرفان بعضهما من زمن نتبادل الأحاديث والذكريات، مرّ الوقت مرور ظل الأغصان على الأعشاب، تأثرت لكلامه وشعرت بجاذب خفي يدنيني إليه بطمأنينة، سألته عن تلك الصورة وعن سبب تلك الرعشة التي تأتيه كل بضعة ثوانٍ؛ أطلق صهلولة مصطنعة، ثمّ أخرج الصورة بعدها من جيبه.

كانت الصورة لشاب رياضي يتمتع ببنية قوية متناسقة، يمتلك عضلات تظهر جليًا، يتميز بابتسامة مشرقة تضفي عليه جاذبية وثقة بالنفس، بجانبه شيخ جليل في الخامسة والستين من عمره على ما يقارب، تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعدة على الهيبة والوقار، ثمّ قال لي:

_ هذا جدي كنت أتأمل صورته، لم يتبقَّ لي من ذكراه سوى هذه الصورة.

بينما كان يتحدث فرت من عينيه دمعة، فحاول إخفاءَها على الفور، ولكن سرعان ما تساقطت واحدة أخرى، حاولت تغيير الحديث وسألته عن الشخص الذي بجانب جده.

نظر لي نظرة يأس وبصوتٍ ثقيلٍ قال: إنّه أنا لا تتعجب، كنت هكذا قبل أن تحل الفاجعة، حتى أنا عندما أقف أمام المرآة لا أصدق أن من أراه هو أنا، بل إنّه شبح تنعكس صورته لي.

كان من يجلس بجانبي شاب نحيل ضعيف وهزيل، بملامح وجه دقيقة توحي بأنّها مرت بتجارب قاسية، ذو بشرة شاحبة وكأنّها لم تتعرض لأشعة الشمس كثيرًا، عيناه واسعتان تحيطهما هالات داكنة، تدل على قلة النوم والقلق، وشعر مبعثر... كان رأسه يميل للأسفل قليلًا مع انحناء في الظهر وكأنّ العالم من حوله ثقيل على كتفيه، على عكس الصورة التي أراها أمامي.

رحت أتأمل الصورة جاحظ العينين لا أصدق ما يقوله، وأنا أقول: كيف؟ ما الذي مررت به حتى وصلت إلى ما أنت عليه، وما تلك الفاجعة التي قلت عنها أنها حلت عليك.

- أخذ نفسًا عميقًا وقال: قبل دخولي السجن لسبب أجهله.

- أجبت: "لقد أصابني الفضول حول ذلك وأريد... أريد أن تحدثني عن قصتك وأحدثك عن قصتي طالما أصبحنا أصدقاء، ما زلت جديدًا هنا ولا أعرف أحدًا وكما ترى لا نفعل شيئًا سوى النوم والأكل وجلسات العلاج والأدوية، لنضيع بعضًا من الوقت.

ابتسم وهو يقول:

_ عندك الحق، أنا هنا من فترة قصيرة، لم أتعرف على أحد، أجلس وحيدًا دائمًا هناك على ذلك المقعد، لم أرَك من قبل، مضى أسبوع أراك دائمًا تجلس على هذا المقعد، كانت تجلس عليه جوليا دائمًا قبل أن تذهب إلى بساط السماء بجناحيها، مسكينة كانت تجلس هنا تخاطب نفسها كل يوم وطوال اليوم.

كان يتحدث وينظر إلى الشمس كل دقيقة بنفس تلك الرعشة، ثمّ أكمل: أعلم أنّ الفضول يسيطر عليك بالكامل حتى أخبرك عن سبب هذه الرعشة، لا تقلق سوف أخبرك، ولكن مجرد أن بدأت الشمس تغرب يجب أن أدخل إلى الداخل، بقيت لفترة من الزمن لا أرى الشمس أبدًا، أخرج فقط بالنهار لأتشبع منها وأرتوي كظامئ في الصحراء، يبتلع ريقه الأخير متأمل بالارتواء منه.

أخذ نفسًا عميقًا وأسند ظهره إلى المقعد ناظرًا إلى السماء.

.....

اسمي عاصم في الخامسة والعشرين من عمري، ابن عائلة مكونة من شخص واحد وهو جدي... مات والداي بحادث سير عندما كنت طفلًا، كنت في الرابعة من عمري حينها عندما تولى جدي رعايتي، وكأنما قدر لي أن أجد في حضنه الأمان الذي يتجاوز حدود الكلمات، كان لي أكثر من مجرد جد، كان الحضن الذي احتميت به، والصدر الذي شعرت على نبضه بدفء الأبوة والأمومة معًا. اعتنى بي بصدق لا يعرف حدودًا، غمرني بحنانه كأنه يعوضني عن كل ما يفتقده قلبي الصغير.

مضت الأيام وأنا أكبر يومًا بعد يوم مستندًا على قوته وعطفه، أتعلم منه وأرى العالم بعينيه، حتى بلغت الثامنة عشرة من عمري عندها، أدركت أنني كبرت، ليس فقط بالسن، بل في قلبي إذ منحني بفضل رعايته القوة

والقدرة على مواجهة الحياة، وكأنني اقتبست من روحه الحكيمة بعضًا من الحكمة، ومن قلبه الطيب عمق المحبة الصافية.

دخل عامه الخامس والستين وأثقلته السنوات ومتاعب الحياة... وقد بدا واضحًا أن صحته لم تعد تساعده كما كانت في شبابه، وبدت يداه ترتجفان قليلًا، مع آلام المفاصل والإرهاق الذي تراكم مع الأيام دون أن يظهره لي.... وأصبحت خطواته بطيئة تكاد تتردد، وكأنّ كلّ خطوة منه تشهد على رحلة طويلة قطعها.

أصبحت أسنده كل يوم في الصباح إلى أمام باب المنزل، يجلس على كرسي ينظر إلى الناس ويروح عن نفسه، وهناك من يأتيه يجلس معه قليلًا، وهناك من يلقي عليه السلام حتى أعود أنا بعد الظهيرة من العمل، أجلس معه قليلًا، ثمّ ندخل، أو أعد الطعام من بعد ذلك أسنده إلى الداخل...

ذات يوم عدت من العمل ودخلنا أنا وهو سويًا إلى الداخل، طلب مني كوبًا من الشاي، كان هو كل ما أملك، وطلب كذلك يسعدني كثيرًا.

مجرد دخولي المطبخ وجلوسه بالصالة.... شقَّ صمت المكان صوت خطوات ثقيلة تقترب بسرعة، تلتها ضجة عنيفة لمجموعة رجال يكسرون باب المنزل وإذ بهم شرطة.

كانت ملامح وجوههم جامدة، وأعينهم حادة كالسكاكين لا ترى سوى الأمر الذي أتوا من أجله، بلباس المارينز الخاص بالمهام الخطرة.

انقضوا عليّ أمام جدي بقسوة لا تعرف الرحمة وكأنهم صاعقة ضربت جسدي فجأة، من ثمّ انهالت على جسدي الركلات كالمطر دون أن يتيحوا لي التفسير أو حتى الدفاع عن النفس.... حاول جدي النهوض ولكن دفعه أحدهم وسقط على الأرض... لم أستطع أن أساعده على النهوض لأنهم كانوا يحيطون بي ويستمرون في إحكام قبضتهم عليّ بقسوة، كانت يداي مكبلتين ووجهي على الأرض الباردة، أما عيناي فلم أعد أرى بهما من عزم الركلات عليهما، بين كل تلك الصيحات والشتائم وركلات الأقدام لم أكن أسمع سوى صوت جدي.

كانوا وكأنهم يحرصون على سحق كل ذرة مقاومة بي.

صمت صوت جدي وعمّ الصمت في المكان، صمت ثقيل في المكان وكأنّ الجدران نفسها ارتعشت تحت وطأة المشهد الدامي، صمت مليء بالمرارة والندم... الندم؟ على ماذا لا أعلم.

ألبسني أحدهم كيسًا أسود من القماش برأسي ولم أعد أشعر بشيء ولا بجسدي، قلت في سري: لقد مات ذلك الشاب على مرأى عين جده وربما مات جده أيضًا، لقد مت يا عاصم تحت النعال.... لكن دعني أخبرك رغم ما تلقيته من ركلات منهم، إلا أنهم كانوا بارعين بالركلات، هم لا يريدون شخصًا ميتًا، هم فقط يتلذذون في تعذيب الضحية... مجرد الإمساك بها يريدون أن يوصلوا الضحية إلى أقصى مراحل الترجي والتذلل والاستسلام... قبل أن يأخذوه إلى السجن ويبدأ مرحلة التحقيق معه على أشياء لا يفعلها،

وكأنّهم يضعون عقيدة في عقله إن ما نفعله وما يحصل كان مجرد مداعبة بسيطة، أو حتى تمهيد لما سيحصل لك عندما تقع تحت أيدي الجلاد، حتى وإن لم تفعل شيئًا، سوف تخترع أي شيء وتعترف به وتأكد لهم وتقنع نفسك أنك فعلته بكامل قواك العقلية، كي تتخلص من تحت أيدي الجلاد وتقطع عنه عمله الذي يتلذذ به.

هدفهم في بداية الأمر هو الإماتة من الداخل وليس بشكل عام، لأنهم يخافون إن مات أحدهم تحملهم مسؤوليته، المطلوب منهم فقط هو الإذلال إلى أقصى درجاته وليس الموت.

جرني رجلان من قدميّ على الأرض، كما يجر الجزار الضحية للذبح، ثمّ وضعاني داخل صندوق سيارة.... أما عن جدي لم أعد أعلم عنه شيئًا إن تركوه أو أحضروه معي، مشوا بي لمسافة طويلة حتى توقفت السيارة وسمعت صوت صرير باب كبير.... ثمّ أخرجوني من صندوق السيارة ومشوا بي داخل ممر طويل، كل ذلك كنت أشعر به ولا أراه.... حتى أدخلوني إلى غرفة وألقوا بي على الأرض وكشفوا عن وجهي الكيس.

كانت غرفة مظلمة يعلوها مصباح ينير القليل من الضوء، ورجل رأيت ظله، بصوت خشن قال لي:

_ أنت عاصم؟

هززت رأسي بنعم، أعاد سؤاله:

_ أنت عاصم...

هززت رأسي مرة أخرى، شعرت حينها بقدمه اخترقت معدتي، وطرح بعدها السؤال نفسه، أجبت بصوت متقطع:

_ نعم أنا عاصم، ويا ليتني لم أجب، أسطوانة الركلات أعيدت من البداية، لم يتبقَّ مكان في جسدي إلا وتذوق طعم الركلات، جروني من بعدها إلى زنزانة أخرى.... زنزانة مظلمة وكئيبة... محاصرة بجدران باردة من الحجارة التي تمتص أي بصيص من الأمل. الهواء ثقيل ورطب يحمل في طياته رائحة العفن وبراز الرجال والجرذان، وكأنّ كلّ نفس فيها يثقل على الصدر كالحجر، كأنّها تخبر الداخل إليها أنّ الامل هنا قد مات منذ زمن وكأنها قبر يختنق به الخواء ذاته...

في أيامي الأولى كنت أشعر وكأنّ تلك الرطوبة تتسلل إلى عظامي، مما تدب بداخلي شعور العجز أكثر... كان في الأعلى نافذة على مستوى يصعب الوصول إليه محاطة بقضبان حديدية صدئة تروي قصة سجن قديم.

النور الذي يدخل منها بالنهار بالكاد يكفي لرسم خطوط ظلال خافتة على الجدران، لكنّه لم يكن يمنع الدفء، بل كان يزيد المكان رهبة في ذات الوقت، كان الضوء في ذلك السجن ليس رمزًا للحياة، بل كأنه شبح يأتي ليشهد على عذاب الساكنين في تلك الزنزانة.

كان الظلام هو سيد المكان، ظلام ثقيل يتخلله صوت أنفاس السجناء فقط، وقطرات ماء تتساقط ببطء مزعج، كأنها تدق عقارب الزمن بحقد متأنٍ داخل جمجمتي، توحي بأنّ كل لحظة هناك هي جرح جديد، الوحدة

وسط ذلك القبر الجماعي، الوحدة لا تعني الغياب فقط، بل شبح يقف بكل زاوية يهمس بهدوء أنّ لا مفر لك، وأنّ كل جدار حولك يحفظ صرخات مكتومة لم تجد لها صدى.

إنّ الحلم الذي انقدتُ إليه في البداية كان مزيفًا تحت تلك الأرض، لقد جملت عمدًا خامة وقائعه، وأضفت اللون على الأسود بالمجان، كانت تلك لعبة وحدت فيها قدرًا من الوقاحة، وكان من الممكن أن ألطف جلجلتي بشيء من التحدي، كنت ما أزال محتاجًا إلى تلك الأعذار الكاذبة لأقنع التسامح الذي ألمّ بي.

كانت زنزانتي قبرًا، لجة تبتلع الجسد رويدًا.. رويدًا.

كانت ليلة باردة ووجدتني عاجزًا عن النوم، أصغي فأسمع خفقات قلبي فأشعر بضيق وقد استبدت بي خشية غامضة، تلوت صلواتي ومن ثم استلقيت على جانبي الأيمن كي لا أسمع دقات قلبي.

فتح باب زنزانتي وانقض عليّ ثلاثة رجال أحدهم كبل يدي بالأصفاد وآخر عصب عينيّ، ثمّ انتقلوا إلى الشخص الذي كان جالسًا بجانبي، والثالث اقتادني إلى الممر، حيث سمعت صرخات آخرين يتعرضون لمثل ما تعرضت له.... وجهة مجهولة. الموت، قلت في سري لعلها الساعة، سوف أرحل معصوب العينين ومكبل اليدين وعاجزًا عن الحركة.... كانت تراودني صورة جليلة للإعدام بلا محاكمة، حتى لو كان إعدامًا بمحاكمة على ماذا لا

أدري.... حتى أنني تلفظت بالشهادتين ورحت أردد العبارة نفسها بوتائر متسارعة حتى بات من المستحيل فهمها فما عادت تلفظ، بل تتردد.

نزعوا العصبة عن عينيّ وألقوني داخل حفرة عميقة وسط حشد من الناس، اكتشفت بعد ذلك أنها تسمى بالزنزانة المنسية أو الزنزانة الحمراء.

عبارة عن حفرة يعلوها باب يرمون منه الناس للأسفل عارين تمامًا من ملابسهم وكرامتهم، كانت الزنزانة قبرًا أيضًا مختلفًا عن الذي قبله... قبرًا طوله تقريبًا ثلاثة أمتار وعرضه متر ونصف يتراوح ارتفاعه مئة وخمسين سنتمتر، لم يكن بإمكاني أن أقف.

حفرة للتبول والبراز، حفرة كان قطرها بضع مترات، كانت جزءًا من أجسادنا، الأفضل أن نسارع إلى نسيان وجودها لكي نكف عن اشتمام روائح البراز والبول. لكي نتوقف عن الشم إطلاقًا، بل ينبغي أن نضع أنوفنا مفتوحة ونتوقف عن الشم.... أن تكون هناك دون ألّا تكون هناك، أن يغلق المرء حواسه ويسلطها في اتجاه آخر ويمنحها حياة أخرى... كأنني ميت بتلك الحفرة مجرد من حواسي الخمسة، أتظاهر بأني وضعتها داخل حقيبة صغيرة وغلفتها جيدًا، بعيدًا عن متناول الجلادين بعيدًا عن متناول الجميع، تعويذة مستقبل ما.

أوقعوني كرزمة رمل، كجراب على هيئة إنسان، فلشدة ما تألمت، ولشدة ما تعذبت، تمكنت شيئًا فشيئًا من الانفصال عن رشدي.

لم يكن لدينا رقعة من الإسفنج على هيئة فراش، أو كومة من القش.

كم راودني إحساس أنّ الأرض ستنشق وتبتلعني، كان لكل واحد منا لتر واحد من الماء يوميًا، لم يكن الماء صالحًا للشرب... كانت أرضية الزنزانة عبارة عن بلاطة كبيرة باردة، ولكل واحد منا بطانية رمادية اللون برائحة عطنة من تشربها للبول، لم تكن تنفعنا صيفًا ولا شتاء... أما الطعام لم نكن نميز ما هو؛ لأننا قد فقدنا حاسة الشم والتذوق، كانت وجبة واحدة باليوم. خليط لا أستطيع أن أميزه ولا أستطيع أن أصف شكله بسبب الظلام داخل تلك الحفرة.

واستحال الموت شعاع شمس باهتًا، من المؤكد أنهم ألقوا بنا هناك كي نموت، كان على أجسادنا أن تعاني التحلل شيئًا فشيئًا... وأن يطول أمد عذابنا، يتسنى له أن ينتشر ببطء وألّا يغفل عضوٌ أو رقعةٌ من الجلد، أن يصعد من أخمص القدم حتى أطراف شعر الرأس، أن يسري بين الثنيات، بين التجاعيد، وأن ينغرز مثل إبرة بحثًا عن شريان ليودع به سمه... ليأتي الموت ونبصر النهار.

كنا ننادي بعضنا البعض بالاسم من وقت لآخر، لنعلم إن مات أحدنا، الشخص الذي لا يرد النداء نناديه عدة مرات أخرى، لنتأكد أنه ميت ليس نائم نخبر الحراس ليأخذوه، حتى أنني أدركت أنني سأكون يومًا واحدًا منهم وأنه لم يعد لي أي خيار آخر.

فعلينا أن نتخلى عن مساعينا اليومية البسيطة، أن ننساها وأن نقول في سرنا: (الحياة أصبحت خلفنا) لقد انتزعنا من الحياة، أن نتخلى عن أمور

الحياة البسيطة... وألا ننظر للوراء... أن نغير سيناريو الحياة ونستعرض كل ما لن يحصل لنا.

ألّا نشرب القهوة في الصباح... أن نتلقى الأنفاس الكريهة والروائح التي تنبعث من جسد مهمل. ألّا نقرأ جريدة اليوم ولا نجلس في مقهى عند المساء.

بعد سنة تقريبية قمنا بحسابها، وبعد عدة أشخاص قمنا بالنداء عليهم ورحلوا ماتت أجسادهم تحت الأرض وأخذوهم وألقوا بهم فوق الأرض بمكان مجهول لا يعلم به أحد.

بعد سنة من أين لك أن تدري وأنت محني الظهر طوال تلك المدة بأنك لا تتعرض لتشوه في العمود الفقري.

كان لكل واحد منا موضع في جسده أو دماغه أصابه التلف، تفاقمت كل أمراضنا وكل أوجاعنا وما من طبيب، وتلك هي القاعدة لا وجود لطبيب بمكان كهذا.

لقد أصبح الموت حينها أمرًا روتينيًا... كان الموت دائمًا يجول بالجوار يستعجل الأمر الذي أتى من أجله.

كنا معزولين عن أخبار العالم في زنزانة المنسيين تلك.

ذات يوم سمعت أنفاس الشخص الذي يقف بجواري وهي تعلو وتنخفض رويدًا رويدًا، ثمّ سقط بعدها على الأرض.

كان اسمه محمود في الثلاثين من عمره، كنا نتهامس ذات يوم وأخبرني عن سبب مجيئه السجن، وهو الثائر بين عائلته وعائلة أخرى ليس هذا حديثنا... لأنّني كنت أشعر أنه صديقي المقرب، رغم أنه لم يكن يسمح لنا الكلام كنا نتهامس، لكن يكفي أنه كان يقف بجانبي دائمًا، وفي أماكن كتلك جميعنا أصدقاء، جميعنا في المحنة ذاتها، لم أستطع السكوت شعرت أن الأمر فاق حدود التحمل، ألقيت الشتائم عليهم وأنا أخبرهم عن موت محمود.

دخلوا علينا أخذونا معًا، ألقوا بي بالممر، أما محمود على الرغم من أنه جثة هامدة ألقوه بجانبي كما لو أنهم يلقون كيسًا من الشعير، أو جيفة حيوان.

جميع أنواع الركلات والصفعات تلقيت، حتى من كان منهم يضربني بماسورة حديدية، كنت أسمع صوت فرقعة عظامي بسببها.

أما محمود فقد قال أحدهم للآخر:

_ الق به خلف الجبل الذي وراء السجن وستتولى وحوش البرية أمره، لكن إياك أن يراك أحد ستوقعنا في ورطة...

حينها علمت أنّ جميع من يموت في تلك الزنزانة المنسية تكون هذه نهايتهم.... أموات في الحياة لا أحد يشعر بهم أو يعلم عنهم شيئًا، ولا أين هم، وأموات تذهب جثثهم للمجهول، للوحوش البرية يا لها من كلمة تعتصر قلبي كلما تذكرته وهو يقولها: (الوحوش البرية تتولى أمرهم).

أشعر أنّ مثانتي تعتصر مجرد تذكار تلك الأيام كلما أتذكر تلك المناظر وتلك الروائح أشعر بالقيء الشديد.

أعادوني إلى الزنزانة. تلك الليلة كانت غريبة حتى الهواء كان غريبًا، كأن السجن نفسه جس أنفاسه... أخذت نفسًا عميقًا من ثمّ أرخيت جسدي تمامًا وأغمضت عينيّ. بطأت أنفاسي حتى صارت تكاد لا تسمع، وجهت ملامحي نحو الشحوب، وتركتهم يرونني كما أردت أن يرونني ميتًا...

أول من اكتشفني كان حسن الرجل الذي كان بجانبي، أحسست بيده على عنقي وهو يتحسس النبض، لحظات صمت، ثمّ قال بصوت خافت: "إنه ميت".

بالكاد لا أحد يستطيع التمييز بين الميت والحي في تلك الحفرة، حتى الحراس نفسهم لا يميزون ذلك، إلا إن سمعوا بأمر كهذا يلقون بالشخص بالسر خلف السجن كي لا يحدث الضرر لهم....

أبلغوا من بالخارج وسمعت صوت خطواتهم تأتي من الممر، ثمّ أخذوني ونقلوني بسرعة كأنني عبء يريدون التخلص من.

كنت أشعر بأيديهم وهي تحملني وأنا أمثل دور الجثة الهامدة.

سمعت صوت همساتهم المرتبكة وهم يسيرون بي نحو الخلف، لم أفتح عينيّ لكنّني عرفت المكان، الغابة التي تحيط بالسجن، ذلك المكان الذي يرعب حتى الحراس أنفسهم...

وصلنا إلى هناك وألقوا بجسدي على الأرض كأنني قطعة قماش بالية، سمعت أحدهم وهو يقول: أخبروا حمدي بأن يتخلص من أوراق السجين صاحب رقم مئة وثلاثة عشر.

لحظات قليلة ثمّ انسحبوا بسرعة، وابتلعتهم الأشجار في الظلام.

ظللت مستقليًا قليلًا أستمع للرياح التي تعصف بين الأشجار ورائحة الحرية التي بدأت تلامس أنفي، أخيرًا..

فتحت عيني نظرت إلى السماء المظلمة، إلى الأشجار التي بدت كأنها تحتفل بعودتي إلى الحياة..

نهضت ببطء... رغم تثاقل جسدي إلا أنني شعرت بكل جزء منه ينبض بالحياة مجددًا... لم أكن ميتًا.... لم أكن أسيرًا بعد الآن... أنا رجلٌ حرٌ أتنفس الهواء الذي كنت أعتقد وآمنت أنه سيبقى محرمًا عليّ... الغابة أمامي كانت مظلمة موحشة، لكنها كانت بوابة للحرية... تركت خلفي السجن وجدرانه الثقيلة البائسة التي حاولت دفني بها.

اقتنعت حينها أنّني حيّ، مشيت لمسافات طويلة بخطوات متعبةٍ، مسافات بعيدة بقدر الإمكان عن السجن. لكن ما إن حلّ الصباح وبدأت الشمس تشرق وتصب نورها وشعاعها على جسدي وناظري الذي لم يرَ نور الشمس منذ زمن، لم أستطع مجابهتها شعرت بالدوران وسقطت على الأرض لا أشعر بشيء من حولي.

سيارة كانت بطريقها متجهة رآني سائقها ولحق بي إلى المستشفى ومن ثم قالوا إنني بحاجة لعناية بسبب سوء حالتي النفسية. بالتأكيد طلبوا مني أوراقي الشخصية، قلت لهم إنني أضعتها ثمّ نقلوني إلى هنا.

حاولت أن أخبر أحدًا ليخبر جدي عني أو يخبرني عنه. لكن علمت أنه مات في اللحظة نفسها التي أخذوني بها.

أنهى عاصم كلماته وأخرج منديلًا من جيبه مسح دموعه، بينما ربت أنا على كتفه ووعدته أنني سوف أساعده بالخروج من هنا، ومسألة شؤون أوراقه. اعترفت له بسبب تواجدي هنا، أجابني أنه شعر أنني لا أعاني من شيء. حاولت الاتصال بعدة أشخاص كي يذهبوا إلى قريته وأن أبحث عن أي فرد من عائلته حتى لو كانت الصلة بعيدة....

ذات يوم استيقظت لم يكن موجودًا بالمصحة لا أعلم هل أحد أتى وأخذه أم هرب أو علموا بوجوده هنا وأنه لم يمت، وأتوا وأخذوه لم أعلم بشيء عنه، ولم يكن لي الحق أن أسأل مدير المصحة عن ذلك أو يمكنني القول إنني لم أكن أريد أن أعرف ما حل له.

.....

كلما جلست هنا أشعر أنّ الغربة ليست مكانًا نعيش فيه بل فكرة تلاحقنا، نحن بعيدون عن بلدنا، نعم، لكن حتى في قلوبنا أصبحنا غرباء عنها.

- نظرت بعين فيها شيء من الحزن وقالت: الوطن لم يكن يومًا مكانًا فقط، الوطن هو ما نحمله معنا، ما يبقى فينا رغم المسافات، نحن تركنا بلدنا نعم ولكن أعارضك بذلك روحها تظل تسكننا.

- أجابها بصوت متهدج: ولكن هل بقي في بلدنا ما يستحق العودة، هل بقيت دمشق هي نفسها التي عرفناها؟ هل بقيت حلب تنشد أغانيها أو حمص تضج بحكايتها..

ربما تغيرت الملامح، لكنّ جوهرها باقٍ، سورية مرت بأحداث أليمة، والحرب كسرت الكثير، لكنّها لم تسقط الروح. ثمّ تنهدت شام وأكملت.... لا تنسَ أن تحت الأنقاض تنبت الحياة من جديد.

نظر لها عدنان بصمت ثمّ أجاب:

_ وماذا عن أولئك الذين تسببوا بهذا الخراب، الذين حولوا المدن إلى ساحات معارك، والناس إلى أرقام في تقارير دولية؟ كيف يمكننا الحديث عن المستقبل بينما الجراح لم تضمد؟ وماذا سنقول لأبنائنا في المستقبل أن من كان يحتل سورية هي سورية نفسها....

لا أحب الاستماع إلى أحاديث السياسة، لكن كنت مستمتعًا بالحديث الذي كان يدور بين هاذين الممرضين عدنان وشام، وكنت أنتظر ما هي نهاية ذلك الحديث.

- يا عدنان. التاريخ مليء بالمآسي، لكن الشعوب تعيد بناء نفسها دائمًا، ليس لأن المآسي تنسى، بل لأن الأمل أقوى من الألم، السياسة، المصالح، الضغائن، تسببت بكل هذا، لكننا نحن كأفراد علينا أن نكون جزءًا من الحل لا أن نبقى أسرى الماضي.

- كان عدنان يستمع إلى كلامها وأنا أيضًا، ثم قال: كيف يمكن أن نكون جزءًا من الحل ونحن بعيدون، نعيش حياتنا في ظل أمان لا يعرفه من بقي هناك.

- البعد لا يعني الانفصال يا عدنان حتى وإن كنا هنا، يمكننا أن نكون صوتًا يدافع عن حقوق لا صوت لهم، يمكننا أن ننقل الحقيقة أن نساعد في بناء جسور بين من رحلوا ومن بقوا، سورية بحاجة إلى جميع أبنائها، سواء كانوا داخلها أو خارجها. المستقبل دائمًا يبدأ بخطوة صغيرة، والخطوة الأولى أن نؤمن بأن الأمل أقوى من أية حرب.

كنت أستمع إلى حديثهما دون أن يعلما وأنا أقول في سري: الأحلام هي ما يحرك الأمم، الحرب تعلم دائمًا أنّ لا شيء يبقى كما هو، لا الألم ولا الأمل، وإن كنا نريد لسورية مستقبلًا أفضل، علينا أن نحمل حلمها معها، ونعمل بجد لتحقيقه.

دائمًا كنت أكره هذه الأحاديث، لكن ما دار بينهما جعلني أشعر بالنقص طالما لا أنظر لما يعيشه الناس..

خلال تلك الفترة التي قضيتها داخل تلك المصحة تعرفت على عدد كبير من المرضى الذين كانوا يتغيرون باستمرار.

إلى جانبي كان يجلس رجل يبدو أكبر من سنه، شاحب الوجه، متجعد الملامح، وكأنما الأيام لم تترك فيه بقعة إلا وعبثت بها، كنت سمعت أن اسمه سعيد يا للقذارة سعيد! اسمٌ لا يعكس شيئًا من حاله... كان ينظر لي بعد صمت طويل قال:

_ حديث هؤلاء يبعث الحزن والتساوي في الوقت نفسه لا فرق بين المهاجر من بلده والمتشرد في بلده.

كنت أراقبك وأنت تستمع لهما وفي عينيك يرتسم حزن دفين، وكأنك من بلدهم نفسها.

- أجبته: بنعم، ثمّ أكمل. لا فرق بيننا كما أخبرتك، كلانا هنا أنا ابن هذه البلد ومشرد به، وأنت من بلد آخر مشرد هنا ونحن الاثنان داخل مصحة.

مشرد! قلت تلك الكلمة بتعجب، أجابني: نعم مشرد إنني أراك هنا دائمًا ولا يزورك أحد وأنا كذلك ما أقصده لسنا مختلفين.

هل تعلم ما اسمي؟ قلت له: أعلم أن اسمك سعيد.

صحيح. وهل تعلم كيف انتهى بي المطاف إلى هذا المكان؟

هززت رأسي نافيًا وابتسمت ابتسامة تحمل دعوة خفية له ليتحدث... كان واضحًا أن الحديث سيكون بيننا أشبه بجسر يحاول عبوره رغم صعوبة

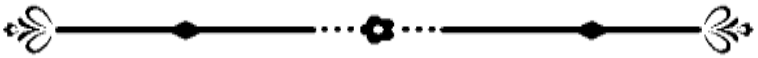

ذلك، كان يبدو مشردًا حتى داخل المصحة، ملابسه مترهلة، وجهه يحمل ندوبًا حفرها الزمن والجوع والخوف.

كنا على ذلك المقعد اثنين من الأرواح المكسورة محاولين أن نفهم ما لا يمكن فهمه... أو محاولًا فهم ما لا يمكن فهمه، كيف جلس بجانبي، وكيف يتحدث بطريقة وكأننا جلسنا مع بعضنا لعدة مرات سابقًا.

مددت يدي ولمست كتفه بخفة محاولًا أن أنقل له شعورًا بسيطًا من الراحة والأمان.

بينما هو رفع رأسه ونظر إليّ مباشرةً وقال:

_ أتعلم كل هؤلاء الذين بالخارج يتحدثون عن الإنسانية والرحمة، لكنّهم لا يفعلون شيئًا سوى بناء جدران تفصلهم عنا... كنت إنسانًا ذات يوم، لكنّهم جعلوني وحشًا في أعينهم وفي عيني، والآن أعيش كظل باهت لما كنت عليه...

شعرت بثقل الكلمات يضغط على صدري، كنت أرى الألم في عينيه، الألم الذي لم يكن وليد لحظة أو حادثة، بل سنوات طويلة من التجاهل والظلم... كنت أحاول أن أتجاهل كلامه وفي الوقت ذاته كان ينتابني الفضول لمعرفة قصته ودخوله.

- قلت له: إن كنت تثق بي يمكنك إخباري عن سبب دخولك لهذه المصحة، وما سبب حقدك على البشر لهذه الدرجة؟

- أجابني: بكلّ بساطة كنت أعيش حياة عادية بسيطة مثل أي إنسان... بيت بسيط عائلة صغيرة، وعمل يومي لوالدي يكسب منه قوت يومه يكفينا أنا وأختي ووالدتي... كنت في السابعة من عمري بينما أختي في الخمس سنوات من عمرها... والدي سافر كما ادعى ليكسب المال من الخارج لتحسين وضعنا المعيشي، ولم نعلم عنه شيئًا من بعدها، إن كان مات أو هرب من قسوة الحياة ومنا، والدتي ماتت بعدها بسنة بسكتة قلبية. بدأت الأمور تتغير ويتبعها مشاكل من الأقارب وكل منهم قرر أننا عبء لا يريد أحد تحمله.

فجأ وجدنا نفسنا في الشارع أنا وأختي بلا مأوى، بلا أمل، بلا مال.

ابتلعت ريقي بصعوبة لم أجرؤ على مقاطعته، لكنّه استمرّ كمن يريد أن يطهر روحه بالكلمات، كأنّني أرسلت له من السماء ليفرغ ما بداخله لي... ثمّ أكمل هل جربت النوم على الرصيف، البرد يتسلل إلى عظامك، الجوع ينهش جسدك، ونظرات الناس تقتلك أكثر من كل ذلك، وأنت مؤتمن على قطعة صغيرة من اللحم نائمة بجانبك.

كل يوم كنا نستيقظ على صوت صراخ أو تهكم، وأحيانًا يلقى علينا الحجارة فقط لأننا موجودون، كنا نختبئ في الزوايا والخرائب، بعيدًا عن البرد والناس، لكن حتى تلك الأماكن لم تكن آمنة نحن المشردون كأننا

فريسة سهلة، تعرضنا للضرب للإهانة وحتى للسرقة من أشخاص لا يملكون أكثر منا.

كان صوته ينكسر مع كل كلمة وكأنّ الذكريات تعاوده كعاصفة لا تهدأ، حاول أن يتابع لكنّ عينيه امتلأتا بالدموع التي حاول عبثًا أن يخفيها. ثمّ صمت لفترة قصيرة وكأنّ الذكريات تثقل كاهله أكثر من أي وقت مضى، ثمّ تابع بنبرة حادة... في أول أيام التشرد كان الليل هو العدو الأول، لم يكن لدينا مكان ثابت نلجأ إليه، كلّ ليلة لدينا رصيف جديد أو زاوية أو خرابة، لم يستقبلنا أحد باسط ذراعيه لنأكل شيئًا.

كانت أختي الصغيرة التي لم تعرف بعد مرارة الحياة، تمسك يدي بإحكام وكأنّها تقول لي: لا تتركني، كنت أعلم في أعماقي أنني مسؤول عنها وإن الأمانة التي على عاتقي أكبر من أي خوف، قد يراودني.

لم يكن لدي شيء سوى الحبّ الذي ما يزال ينبض في صدري، والحاجة إلى أن أكون السور الذي يحميها من قسوة هذا العالم رغم صغر عمري ذلك.

.....

أنني وفي هذه اللحظة، أستعيد ذكرى ذلك الصباح، حيث بدت الحياة كأنها تمنحنا فرصة أخيرة قبل أن تبتلعنا العتمة.

كانت أمي تمشط شعر فاطمة برفق بينما تدندن لحنًا قديمًا، لحنًا بدا وكأنّه قادم من مكان بعيد جدًا، الشمس تتسلل عبر النافذة المهشمة ترسم

خطوطًا ذهبية على وجوهنا، وكأنّها تحاول احتواء ما بقي من الدفء في حياتنا.

إلى أين سنذهب اليوم يا أمي، قالت فاطمة ذلك بصوت طفولي مشوب بالبراءة، وهي تمسك دفترها المليء برسومات عن بيوت وشوارع لا تعرفها.

"إلى حيث يقودنا القدر يا صغيرتي."

لكن القدر لم يكن رحيمًا، ولا مبتسمًا، ذهبت أمي وأختي في الصباح وبقيت لوحدي في المنزل، عادت أختي في المساء فقط من غير أمي، والدي لم يعد موجودًا، ووالدتي أيضًا.

تجمعت العائلة لأخذ الميراث وأعطوني يد فاطمة وحقيبة صغيرة وقالوا لي أنت المسؤول بعد الآن.

أول خطواتنا في عالم التشرد بدأت من ذلك اليوم، كانت أشبه بالرقص فوق الجمر، الشوارع كانت مكتظة بالوجوه والأنفاس الثقيلة التي تفوح من أفواه الناس.

كنت أمسك يد فاطمة محاول إخفاء خوفي خلف قناع الشجاعة الزائف، كنا نسير بلا هدف وبلا وجهة، نتوقف فقط عند حاويات القمامة بحثًا عن بقايا طعام.

تلك المدينة لم تكن مجرد مكان، بل كانت كيانًا يتنفس القسوة، أشبه بمارد جشع يبتلع أحلام الضعفاء دون تردد، الطرقات المعبدة المباني العالية، لم تكن شاهدة على أحلامنا، بل على انهيارها.

أصوات السيارات كانت كطبول حرب تعلن أننا دخلنا معركة لم نخترَها، كلّ تلك الضوضاء التي بدت طبيعية للآخرين، كانت تغمرنا كالموج، تغرق صرخاتنا الخافتة وتجعل أنيننا بلا صدى.

والناس؟ الناس كانوا يسيرون من حولنا كالأشباح، أعينهم تحدق في الأفق، وكأنّ وجودنا يشكل تهديدًا لكمال يومهم.

لا أحد ينظر مباشرةً إلى المتشردين، ليس لأنّهم لا يرونهم، بل لأنهم يخشون ما قد يرونه فينا انعكاسًا محتملًا لمصيرهم، ربما كانوا يعلمون في أعماقهم أنّ الفرق بيننا وبينهم ليس سوى سلسلة من القرارات الخاطئة، أو حظ عاثر، وأنّ كل خطوة نخطوها نحن نحو الهاوية قد تكون خطوتهم التالية.

في تلك الليلة للأولى عندما جلسنا على الرصيف، لم تكن مجرد لحظة من الزمن، بل كانت اختزالًا لحالة إنسانية كاملة.

البرد الذي لف أجسادنا كان أكثر من مجرد طقس، كان شعورًا يغزو أرواحنا، يجمد كلّ أمل داخلنا.

أما فاطمة احتضنت كتابها الصغير وكأنّه درع في معركة غير متكافئة، لم يكن ذلك الدفتر مجرد أوراق مجمعة، بل كان تمثيلًا لطفولتها التي دفنت، شاهدًا صامتًا على براءتها يثبت أنها كانت يومًا جزءًا من عالم آخر، عالم لم يكن فيه التشرد خيارًا.

متى سنعود إلى المنزل يا أخي؟ ذلك السؤال الذي لم يكن بريئًا كما يبدو بل كان صوتًا يحمل كل الحزن، كل القلق وكل الأمل الذي كاد يندثر واندثر.

عندما كنت أجيبها بـ "قريبًا يا صغيرتي"، لم أكن أكذب عليها فقط، بل كنت أكذب على نفسي أيضًا، كنت أتمسك بذلك الوعد الكاذب كأنه طوق نجاة... رغم أنني كنت أعلم أنه مقطوع.

كلماتي كانت محاولات بائسة لتثبيت صورتها كطفلة ما زالت تؤمن أنّ هناك ضوءًا في نهاية النفق.

الكذب في مثل تلك اللحظات لم يكن خيارًا نابعًا من قسوة، أو عدم احترام للواقع، بل كان فعلًا محببًا يحمل في طياته شفقة وحبًا... كنت أكذب عليها لأحميها من الحقيقة التي كانت ستسلب آخر بقايا طفولتها.

وجدنا خرابة تأوينا أنا وفاطمة من هواء الليل البارد، حين وصلنا لها بدت كأنها كابوس مجسد، الجدران المتصدعة كانت تحكي قصصًا قديمة، الروائح كانت مزيجًا من العفن واليأس.

كنت أشعر أنّ كل زاوية فيها كانت تسخر منا تهمس لنا: ها قد وصلتم، لا مهرب لكم الآن.

كل شق بالجدران كان انعكاسًا لانكسارنا الداخلي.

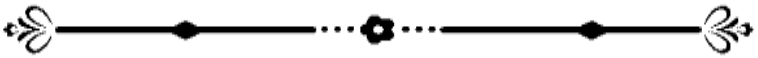

في أحد الزوايا المظلمة كان يجلس رجلٌ، بدا وكأن الزمان قد نحت ملامحه بأداة صدئة، عيناه غائرتان كأنهما تنظران إلى عالمٍ بعيدٍ عن هذا الخراب، عينه اليسرى ترف كل الوقت، بظهر مُنحنٍ قليلًا يدخن سجائر رخيصة.

- قال بصوت أشبه للهمس: من أنتم؟

- أجبته بخوف: "جئنا لنبحث عن مكان ننام به".

- ما اسمك؟

- أجبت: اسمي سعيد.

- ثم نظر إلى فاطمة وهو يسعل ويبصق المخاط من فمه وقال: هذه الخرابة ليست مجرد مكان للنوم يا سعيد إنها حالة، حالة عندما تفقد كل شيء حتى نفسك... ومن أجل العيش هنا والبقاء على قيد الحياة هناك شروط يجب تتبعها للدخول إلى عالمنا ولتكون واحدًا منا.

كنت أراقبه بصمت، أحاول فهم معناه، وكلامه الذي يبدو كطلاسم لا أفهمها، هل يمكن للإنسان أن يفقد نفسه حقًا؟

لم يكن عندي حل آخر ولذلك وافقت على أن أكون واحدًا منهم، ثم قال لي بصوته الخشن: سوف تجلسان هنا حتى يأتي باقي إخوتنا وتعرفون بعضكم على بعض.

حل المساء ودخل شاب في العشرين من عمره لم يتفوّه بكلمة، جلس في أحد الزوايا وأخرج كيسًا بلاستيكيًا وراح ينفخ به باستمرار بين الحين

والآخر، وكأنّ ذلك الكيس هو رئته الصناعية... الوسيلة الوحيدة للتشبث بحياة لم تعد تنتمي له.

نزار كان يضحك دائمًا، ضحكاته كانت تنطلق فجأة، عالية ومزعجة، لكن سرعان ما تنطفئ تاركة خلفها فراغًا مخيفًا... نزار قال لي ذات مرة: هذه الخرابة يا سعيد هي وطنك الجديد وهو ينفخ في كيسه، ثمّ توقف لبرهة وأضاف ابتسامة ملتوية، "لا تحاول الهروب، فالهروب مستحيل. نحن هنا لأننا أردنا أن نكون هنا. أو ربما لأن العالم لم يردنا".

شارف الليل على الانتهاء في يومنا الأول، دخلت فتاة لكن علامات تعب الحياة ظاهرة على ملامحها... كانت عاهرة ليل للفقراء. بمبلغ مادي صغير، أو وجبة طعام، أو حتى ربما تنام مع أحدهم من أجل سيجارة، لكن إن نظرت إلى نعومة جسدها سوف تراني أكثر أنوثة منها.... الثياب كريهة رائحتها عطنة، تلتهم الشطائر في جشع... تلوكها في تلذذ شبه جنسي، كانت تجلس وسط الخرابة تتحدث عن أحلامها دائمًا... قالت لي مرة: هل تعتقد أنني كنت دائمًا هكذا؟ كنت جميلة، كنت أرقص وأضحك، ثم أتى الزمن وقرر أن يجعلني نسخة مشوهة من نفسي. أتعرف ما هو الأسوأ؟ أنني لم أعد أذكر كيف كنت.

كانت فاطمة البريئة تجلس تراقبهم، حاولت حمايتها، ولكن الخرابة كانت تمتصها كالإسفنج.

رأيتها ذات مرة تجلس بجانب منى، تراقبها بانتباه كأنها تتعلم منها دروسًا جديدة في البقاء. كنت أشعر بالخوف كلما رأيتها تقترب من هذا العالم أكثر.

مرة جلست بجانبها وهمست لها. فاطمة لا تنسي من أنت، لا تدعي هذه الخرابة تبتلعك، نظرت إليّ بعينيها الواسعتين وقالت بهدوء:

وأين سأذهب يا سعيد؟ العالم كله يشبه هذه الخرابة فقط بألوان مختلفة.

تساءلت بيني وبين نفسي بأن كيف لطفلة أن تفقد الأمل بهذه السرعة، كيف سمحت لهذا المكان بأن يسرق منها براءتها؟

كنا نخرج بالنهار، نسرق الطعام، نجمع البلاستيك والكراتين، منى تمارس البغاء، سامر يعطي المخدرات للأطفال تبيعها على زوايا الطرقات، نزار يذهب لا أعلم إلى أين ويعود بكيسه الذي يستنشق منه الكولا.

نشعل النار في الليل ونجتمع حولها، تختلط رائحة العفن في الخرابة بروائح المخدرات ودخان النار، فيتحول الليل إلى كوميديا سوداء للهروب من الواقع.

قال سامر ذات ليلة ونحن نجتمع حول النار وهو يضحك بصوت عالٍ. "هذه النار هي الشيء الوحيد في حياتنا الآن، نحن مثلها، نحترق ببطء".

منى أضافت وهي تتأمل وجهها بشظية مرآة صغيرة: "لكنّنا على الأقل نضيء، أليس كذلك".

بينما نزار كان يقرأ جريدة قديمة قد وجدها بالطبع لم يشتريها... ثمّ قال بصوت عالٍ وكأنه مقدم نشرة أخبار:

ارتفاع نسبة الفقر في البلاد العربية. حقًا كانوا بحاجة إلى دراسة ذلك.

منى ضاحكة بطريقتها الساخرة: "ربما نحن جزء من هذه الإحصائيات"

أجابها سامر:

_ يجب أن نشكرهم على اهتمامهم.

ضحك الجميع ضحك أقرب إلى العويل، حتى أنا ضحكت ربما لأنني لم أعد أستطيع البكاء.

لكنّني كنت أعلم أنني أخسر فاطمة، كنت أراها تختفي مني بين هؤلاء الأشخاص، بين ضحكات نزار، وجراح منى، بين صمت سامر وأحاديثه الغامضة. كنت أريد إنقاذها لكن الخرابة كانت أقوى مني.

بدأت المأساة من جديد، بدأت القصة الصعبة بمنى

_ تلك المرأة التي كانت تحمل بين يديها حقيبة صغيرة، لكنها كانت أكثر مما يبدو. حقيبة مليئة بما لا يجب أن يرى، بما لا يجب أن يلمس، لكنّها كانت بالنسبة لها خلاصًا مؤقتًا من واقع خرب.

منى كانت تعرف كيف تقنع، ليس بالكلمات، بل بالسخرية المرة التي جعلتها تبدو كأنها سيدة هذا العالم المظلم.

في إحدى الليالي كانت فاطمة قد أصبحت شابة في عامها الخامس عشر، نظرت منى إلى فاطمة التي بدأت فهم هذا العالم، وقالت بابتسامة جانبية:

"هذه هي الحياة يا فاطمة، لا شيء يستحق الاهتمام، طالما أنّ هناك ما ينسينا كل هذا الخراب."

رأيت الخوف في عيني فاطمة، لكن الفضول أقوى.

كانت تتبع منى إلى الزوايا المظلمة، حيث تحدث الصفقات، وحيث تبادل الأموال بالألم مقابل الجنس. كانت تلك الأماكن تبتلع النور، لا مصابيح ولا أمل، فقط همسات خافتة، وضحكات مشوبة بالجنون.

تلك الليالي لم تعد فاطمة. فاطمة التي أعرفها.

في ليلة باردة خرجت فاطمة مع منى، كنت أراقبها من بعيد، عيناي محملتان بقلق لم أستطع التعبير عنه. قلت لنفسي إنها ستعود وإنها فقط تمر بلحظة تمرد صغيرة، لكن الليل مرّ ثقيلًا وفاطمة لم تعد.

بدأت أبحث عنها في كل مكان، ناديت باسمها في الطرقات المهجورة، بين الأزقة التي كانت تضيق كلما تقدمت فيها، كنت أسمع صدى صوتي يتلاشى، كأنّ المدينة كانت تمتص نداءاتي، تخفيها في زواياها القاتمة.

لكن حين وجدتها. كنت وصلت إلى أعمق نقطة في الجحيم، في زقاق مظلم، رأيتها ملقاة على الأرض في زاوية باردة كأنها جزء من الحطام، عيناها كانتا مفتوحتين، تحدقان في الفراغ، لكنهما لم تريا شيئًا.

كان هناك عدة شبان في المكان، بعضهم يتكئ على الحائط وبعضهم غارق في نوم ثقيل تحت تأثير السموم التي بثوها في أجسادهم. كانوا يضحكون

ولكن ضحكاتهم كانت كصفعات على وجهي، لم يعنهم أن فاطمة كانت هناك قدم في الحياة، وقدم في الموت.

ركضت نحوها، احتضنت جسدها الصغير، كان باردًا كالثلج ، كانت أنفاسها صعيفة كأنها تتشبث بآخر خيط في الحياة، بصوت خافت همست لي: لماذا تركتني؟

كانت كلماتها كسكين تقطع أوصالي، حاولت أن أرد عليها، أن أخبرها أنني لم أتركها. لكن الكلمات خانتني لم يكن هناك شيء يمكنني قوله.

كانت تمسك بيدي وعيناها تغمرهما الدموع، لكنّها لم تكن دموع خوف، كانت دموع استسلام. شعرت أنّ الحياة كانت تفارقها ببطء، كما تتسرب المياه من وعاء مثقوب.

صرخت بأعلى صوتي، صرخة لم يكن لها صدى، كأنّ المدينة كلها اختارت أن تتجاهلها، أن تغمض عينيها كما اعتادت أن تفعل دائمًا.

الرجال من حولنا استمروا في ضحكاتهم لم يتوقفوا. حتى حين سقطت فاطمة من يدي، كدمية فقدت روحها.

فارقت الحياة فاطمة حينها، وضعتها على الأرض وكأنني أحاول ألّا أزعجها في رحيلها الأخير.

نظرت في وجوه من حولي، لم أجد سوى الفراغ، كأنّ كل شيء مجرد ديكور مسرحية عبثية، أنا بطلها الوحيد.

كان موت فاطمة نقطة اللا عودة بالنسبة لي، لم تعد الخرابة مجرد مكان. بل أصبحت مقبرة لكل ما تبقى من روحي.

كان صوتها وهي تقول: "لماذا تركتني" يلاحقني في كل زاوية، في كل لحظة صمت.

كنت أعلم أنّ العالم لن يتغير، وأنّ المدينة ستبقى كما هي قاسية، عمياء، وغير مكترثة، لكنّني كنت أتساءل: هل كان يمكنني أن أفعل شيئًا، هل كان بإمكاني أن أنقذها؟

فكان يأتيني الرد من العدم من الصمت. "أنّ هذه الخرابة ليست مكانًا يدفن فيه الناس، بل مكان يدفن فيه الأمل.

كنت أتذكر قول سامر دائمًا وهو يقول:

الموت هنا ليس عبثًا، بل هو طريق مفتوح على السماء.

ونزار الذي كان يقول:

نحن مجرد قطع على رقعة شطرنج، لا يعرف أحد أين ستسقط.

بعد موت فاطمة فقدت كل شيء، لم أعد سعيد الذي كان. أصبحت ظلًا شاحبًا لإنسان كان يحاول أن يصمد. أحمل جسدي بين الأزقة كأنه حقيبة مليئة بالحطام.

كان عقلي سجينًا لتلك اللحظة، ولهمستها الأخيرة وهي تقولك "لماذا تركتني؟"

أصبحت الخرابة عالمي الوحيد. أقف الهاوية تحتي، أفكر متى سأسقط؟

الكحول أصبح صديقي الصامت، الزجاجات الفارغة تملأ الزوايا. كل واحدة منها تحكي عن ليلة أمضيتها محاولًا أن أنسى، كنت أشرب حتى يفقد العالم وضوحه، حتى تتحول ذكرى فاطمة إلى همسات بعيدة.

المخدرات التي كنت أخشاها يومًا، أصبحت جزءًا من يومياتي، جرعة هناك، سيجارة هناك، وشيء ثقيل في روحي يثقل أكثر.

منى بعد ما حدث لا أحد يعرف عنها شيئًا، آخر مرة رآها أحدهم... كانت تمشي في الظلام تحمل كيسًا صغيرًا، أو تغني أغنية، اختفت كأنها لم تكن يومًا جزءًا في حياتنا.

بقينا ثلاثتنا أنا وسامر ونزار، الخرابة كانت تلتهمنا. لكنّها لم تكن راضية. كانت تطلب المزيد منا تطلب أرواحنا بالكامل. كنا نعلم جميعنا أن النهاية قادمة.

في إحدى الليالي المظلمة جلسنا حول النار، نتضرع الخمور ثلاثتنا. نظرت إلى النار وهي تتراقص أمامي وكأنّها تقول لي: "هذه النهاية يا سعيد أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟"

قال سامر بصوت أجوف بعد أن ظل صامتًا طوال الأسبوع: سأنهي كل شيء، هذه الحياة لا تستحق أن تعاش.

ثم أخرج قطعة زجاج وضغطها في معصمه. حاولت أن أوقفه لكن كنت أضعف من أن أفعل شيئًا.

كانت نظراته مليئة بالراحة. كأنه وجد الحل أخيرًا.

أما نزار فقد انهار تمامًا بعد موت سامر، لم يعد يضحك، اختفى ضحكه الذي كان يجعل الخرابة أقل قسوة.

بعد فترة ليس بكثيرة، وجدناه غارقًا في زاوية الخرابة، الكيس البلاستيكي الذي كان صديقه الدائم ملقى بجانبه وعيناه مغلقتان إلى الأبد.

أما أنا فقد كنت أضعف من أن أواجه هذه النهايات.

الخرابة أصبحت فارغة، وأنا أصبحت أكثر غزلة.

كنت أشرب حتى أفقد الإحساس بكل شيء، بكل شيء، لم أعد أعلم ما هو الواقع، وما هو الوهم.

كنت أسمع صوت فاطمة في كل ليلة، وهي تسألني نفس السؤال: "لماذا تركتني؟"

دخلت في نوبة جنون بينما كنت تحت تأثير الكحول والمخدرات... كنت أصرخ في الخرابة، أكسر زجاجات، وأضرب الجدران بيدي حتى نزفت في لحظة انهيار.

وجدتني بالشارع، بين الناس الذين كانوا يحدقون بي وكأنني وحش خرج من كهفه.

لم أشعر بشيء عندما أتت سيارة الشرطة، ولم أقاوم عندما أمسكوا بي.

كنت قد فقدت الرغبة في العيش.

استيقظت في اليوم الثاني وجدت نفسي هنا، في غرفة بيضاء ولكنها أقرب للسجن، لكنها كانت أقل قسوة من الخرابة، لم أعرف كم من الوقت مضى... لكنني أعلم أنني سأخرج قريبًا.

في بداية قدومي كانوا يحاولون "إصلاح" ما تبقى مني.

كانوا يتحدثون عن الأمل، عن المستقبل، لكنني كنت أعلم أنني فقدت كل ذلك منذ وقت طويل... أجلس دائمًا هنا في الزوايا، أراقب الآخرين، أتساءل هل يمكن لأي شيء أن يعيدني إلى ما كنت عليه؟

ثمّ أخرج سعيد من جيبه دفترًا صغيرًا. كتب عليه مذكراته أعطاني إياه وغادر.

كان من ضمن تلك المذكرات كتابات مثل:

أنا لست سعيد الذي عرفته أنا شبحه، أمشي بينكم لكنني ميت منذ زمن، الخرابة أخذت كل شيء مني، ولم تبقني إلا رمادًا.

ما زلت أسمع صوت فاطمة أحيانًا، لكنه أصبح أكثر خفوتًا كأنه يبتعد. في المصحة أنا مجرد رقم بين أرقام كثيرة، لكنني أعلم أنّ النهاية قريبة.

الخرابة لم تتركني أبدًا، حتى وأنا بعيد عنها، أصبحت جزءًا من داخلي، جزءًا لا يمكن أن أهرب منه، مهما حاولت.

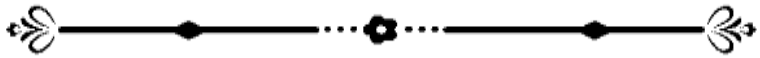

لم أعد الرجل الذي عاش بالخرابة، ولم أعد ذلك الظل الذي كان يهيم بلا هدف.

سعيد لم ينهَر، أخبرني المرضون أنه جاء إلى المصحة مكسورًا، رجلًا فقد كل شيء، كان صامتًا في البداية. لكن مع الوقت بدأ يشارك قصته. كان يتحدث عن الخرابة التي عاش بها، كان يحمل أعباء ثقيلة، لكنه بدأ يتحول بطريقة غريبة.

كان يتحدث عن الألم وكأنه معلم، وعن الخرابة كأنها درس تعلمه بصعوبة.

بعد فترة تعافى تمامًا وخرج من المصحة. لم يكن خروجه مجرد نهاية لفترة علاجه، بل كان بداية لشيء جديد.

سمعت أنه انضم إلى جمعية تساعد المشردين.

كنت أشك من قصته بأن شخصًا مثله لا يمكن أن يغير حياته تمامًا... خاصةً أنّ أخباره كانت تصلني بعد خروجه بشكل مستمر.

قال لي أحدهم: إنه يتحدث إلى المشردين يجلس بجانبهم على الأرصفة. يستمع إلى قصصهم دون حكم أو استعجال.

أصبح سعيد بعد فترة ليس فقط مجرد متطوع، بل كان مجرد رمزٍ للتغير، كان الرجل الذي عرف الألم، لكنّه اختار أن يحوله إلى شيء يساعد الآخرين.

من ضمن الرسائل التي تركها سعيد لي ضمن مذكراته.

إذا كنت تعرف الألم، فأنت تعرف الطريق. كن النور في حياة من يعيشون في الظلام.

في أحد الأمسيات الهادئة، داخل المصحة، كنت جالسًا على سريري. أراقب دفاتري المبعثرة حولي، كان الصمت هو سيد المكان. وكأنّ المصحة بأكملها حبست داخل قبة حديدية تمنع أي صوت من النفاذ. فجأة دخل أحد الموظفين يحمل رسالة صغيرة. نظرت إلى الرسالة وقلبي يخفق بين الأمل والريبة. الرسائل من خولة كانت دائمًا شمعة تضيء عتمتي. لكن هذه الرسالة... شعرت أنها تحمل شيئًا مختلفًا.

فتحت الظرف بيدين مرتجفتين، وعيناي تبحثان عن كلماتها التي أشتاق لها. لكن الكلمات التي قرأتها تلك لم تكن مليئة بالحب بل بالخذلان.

"مؤمن" لم أعد أحتمل هذا الانتظار. أشعر أن حياتي قد توقفت عند بوابة المصحة، وأنت لم تعد كما كنت. لن أكذب عليك، لقد تعبت، وقررت أن أمضي في طريقي بعيدًا عنك.

أنا آسفة، لكن لا يمكنني أن أظل سجينة لوعود لا أرى منها نهاية. أتمنى لك السلام.

تلك الكلمات مزقتني، شعرت وكأنّ الأرض قد انشقت تحت قدمي لتبتلعني، وابتلعت ما تبقى مني، حاولت أن أفهم أن أبرر، لكن الرسالة كانت

واضحة. خولة الفتاة التي كنت أعتبرها نور حياتي، قررت أن تتركني وحدي في هذا الظلام.

مرت الأيام بعدها ثقيلة، وكأنها تسحبني نحو هاوية بلا قاع، دفاتري التي كنت أملأها بحكايات الآخرين، أصبحت فارغة، وقلمي الذي كان أداة نجاتي، صار كأنه قطعة حجر لم أستطع به الكتابة، ولم أعد أرغب في سماع قصص الآخرين، كنت أحاول الهروب من الألم، لكن لأين يمكنني أن أهرب وهو يعيش بداخلي.

بعد أسابيع وبينما كنت أجبر نفسي على تناول طعام الفطور، دخل أحد الموظفين ومعه ورقة أخرى ولكن كانت من عائلتي، قال لي بصوت خافت وكأنّه يخشى أن تنهار الأرض من تحتنا.

خولة ماتت... حادث سير، وضعت يدي على فمه لم أدعه يكمل كلامه.

في تلك اللحظة شعرت أنني قد توقفت عن التنفس، الرسالة التي كتبتها خولة قبل وفاتها كانت تملؤني بالخذلان، لكنها أصبحت جرحًا لا يمكن التئامه.

تركتني في الحياة، ثمّ رحلت عنها، كأنها أرادت أن تقتلني مرتين.

لم أعد أعلم ما الذي يمكنني فعله. أصبحت الرسالة هي شريكي الوحيد في الغرفة. أقرؤها كل ليلة، أحاول أن أستوعب كيف يمكن لشخص أن يحبك ويتركك في نفس الوقت. هل كانت خولة تعلم أنّها سترحل؟

هل كتبت تلك الرسالة لتبعدني عنها، كي لا أعيش ألم فقدها، أم أنّ القدر كان أقسى مما تصورت؟

أحمل هذه الرسالة دائمًا في جيبي كأنها قلب ثانٍ ينبض بالحزن.

أصبحت كل كلمة فيها كالنصل الذي يحفر في صدري. خولة لم تكن مجرد حب، كانت قصيدتي التي لم تكتمل حلمًا بات يطاردني في يقظتي ومنامي.

لم أستطع التصالح مع فكرة أنها تركتني باختيارها، ولا مع فكرة أنها غادرت هذا العالم قسرًا بعد ذلك. كانت رسالتها آخر ذكرى ملموسة منها، لكن صوتها ما زال يزورني أحيانًا بنعومة كنسيم الليل وأحيانًا كصرخة تفجر رأسي.

بينما كنت مستلقيًا على سريري ذات مرة، جاءتني فكرة غريبة، ماذا لو كانت خولة تحمل معنى أعمق؟ ماذا لو لم تكن تتركني بقدر ما كانت تهيئني لأواجه الحياة بدونها؟ بدأت أقرأ الرسالة مرة بعد مرة، أبحث بين السطور عن معنى خفي. وجدت نفسي أكتب ردًا عليها، ليس لإرسالها، بل لأتحدث معها كما كنت أفعل عندما كانت هنا.

"خولة" لا أعلم لماذا قررت تركي، ولا لماذا رحلتِ بهذه السرعة.

لكنني أفهم الآن أنكِ كنتِ أقوى مني.

أنتِ التي اخترتِ المواجهة بينما أنا بقيت أهرب حتى من نفسي، ربما كنتِ تعرفين أنني أحتاج لأن أواجه وحدتي، أن أعيش الألم كي أستطيع أن أكمل.

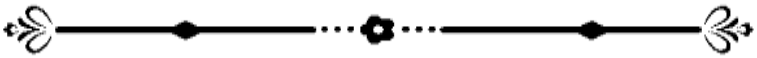

خولة، هل تسمعينني الآن؟ هل تعرفين أنني أكتب هذا الرد بين جدران المصحة التي أصبحت بيتي.
لم أعد أبحث عن إجابات. لم أعد أسأل لما تركتني.
كل ما أعرفه هو أنني سأظل هنا في هذه المصحة وفي هذه غرفتي هذه، صاحبة رقم اثنين وعشرين.
ليس فقط لأجل خولة، بل لأجل الأرواح التي تلاقت هنا.

وأنت الذي دخل لتوّه هذه الغرفة الصغيرة المعتمة، أنت الآن قد عرفت عني الكثير، وعرفت عن الذين قبلي، الذين عاشوا هنا في عزلتهم، أولئك الذين رسموا أساطيرهم على جدران هذا المكان، وتاركين خلفهم أسماء محفورة بألم وذكريات منسية.

كل حرف قلته لك، وكل قصة سمعها قلبك، كانت بمثابة نافذة إلى أرواحهم. هؤلاء الأشخاص الذين مرّوا في حياتي، تركوا أثرًا عميقًا في كياني. هم الآن، مع خولة، جزء من قصتي التي لن أنساها أبدًا. ربما تساءلت: هل سأخرج من هنا؟ وربما ظننت أنني سأجد الراحة في الذاكرة. لكن، ها أنا هنا، أقول لك آخر الكلمات.

لقد أخبرتك عن خولة، التي تركتني، وعشت في أحلامها الحزينة حتى آخر لحظة. رسالتها كانت آخر ما أملكتني الحياة من أمل، لكنني اليوم أجد أن الحياة تستمر حتى في الغياب. كما تركت خولة حياتي، تركتني المصحة أعيش بين الوجوه التي لا أعرفها، لكنني تعلمت أن الحياة ليست في النهاية فقط، بل في كيف نعيش خلالها.

لقد عشت معي هنا وأخبرتك عن الأمل المفقود والضحك المخبأ خلف الجدران المكسورة، وعن الحروب التي يخوضها كل منا في صمت، وعن القلب الذي يسعى للشفاء رغم الجراح. ربما ظننت أنني سأبقى هنا إلى الأبد، لكنني الآن، وفي النهاية، أدركت أنني لست بحاجة إلى البحث عن إجابات. نحن هنا، في مكان واحد، ولكننا جميعًا نعيش في طرق مختلفة، وكل واحد منا يقف أمام أبواب مغلقة، لكننا نستمر في الحياة.

والآن، حان الوقت لأقول لك ما ينبغي أن تعرفه قبل أن تخرج:
الآن بعدها عني وعنهم، حان الوقت لتغادر هذا المكان. حان الوقت لتغلق الباب خلفك، بعد أن عرفت قصتي، وعرفت أن الحياة ليست دائمًا كما نتوقعها. فلتخرج الآن، ولتترك خلفك كل ما سمعته، وكل ما عشته في هذه الغرفة، فأنت، مثلي، مثلهم، مثل كل من مرّ في هذا المكان، تتعلم في النهاية

أن كل واحد منا يخوض معركته الخاصة في عزلته، في هدوء وهدير غير مرئي.

فلتغلق الباب بهدوء، كما لو أنك لا تود ترك هذا المكان وراءك، ولكنك مجبر على المضي. لأن الحياة تنتظرك هناك، وراء الباب الذي لن يُفتح مرة أخرى.

انتهت والحمد للّه

السيرة الذاتية

الكاتب: مؤمن مصطفى السبيعي

الجنسية ومكان الولادة: دمشق (سورية)

الإقامة: مصر

مواليد: 1998/5/27

الاعمال السابقة

رواية: ليقسو قلبي

مجموعة قصصية: آي بي آر

رواية: انتقام الجنّ

مجموعة قصصية: المدانون

رواية: ريمونتادا سوداء

رسالة صغيرة: هذه الرواية تم الانتهاء منها في اليوم التاريخي العظيم 2024/12/8 يوم تحرير سورية والخروج من نكبتها بثوبها الأخضر وإعادة الأمان والاستقرار لها.

دمتم بخير ودامت سورية حرة أموية.

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع